الدلالات الروحية والخلقية عند صوفية الإسلام

أ.د أحمد محمود الجزار
رئيس قسم الفلسفة
كلية الآداب - جامعة المنيا

تمهيد :

من المعلوم أن كل دين من الأديان يشتمل على جانبين ، أولهما مجموعة الاعتقادات التى تشكل أصوله ، وثانيهما هو الطقوس أو الشعائر التى هى رسومه . والجانب الثانى لا ينفصل عن الجانب الأول . فكل الشعائر والطقوس التى يتعبد بها أصحاب كل دين من الأديان ، ما كان منها من الأديان الوضعية أو الأديان السماوية ما هى إلا صور يراد بها التقرب إلى الإله الذين يدين به أصحاب هذا الدين ، لأن الدين -كما يعرفه الإمام محمد عبده- هو "إذعان النفس لله مع الخضوع له والامتثال لأوامره"(١) .

ومن المعلوم كذلك ، أن كل الأديان السماوية يجمعها كل الإقرار بالألوهية لله وحده ، والتوجه إليه بالطاعة ، والإذعان والامتثال لأوامره وحده ، ومع هذا فإن صور العبادات فى كل دين من الأديان السماوية ليست هى عينها فى غيره من هذه الأديان رغم الاتفاق بينهم جميعاً فى هذا الأصل الإيمانى ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى وهى الأهم فإن كل واحد من أصحاب هذا الدين مطلوب منه أن يتعبد بتلك الصور -أعنى صور العبادات- ، وليس له أن يسأل عن أوضاعها وهيئاتها ، وإنما عليه تحقيقها وإقامتها ، إذ العبادات ، كل شعائر توفيقية ، ومن ثم تؤخذ بأوضاعها واشكالها(٢) .

---

(١) عبده (الأستاذ الإمام) : تفسير سورة الفاتحة وجزء عم ، طبعة جريدة الجمهورية - القاهرة - ١٩٨٩ ، ص ٢٠٣.

(٢) العقاد (عباس محمود) : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه - مكتبة النهضة - القاهرة - بدون تاريخ ، ص ٩٨

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

مفهوم العبادة فى الإسلام :

وإذا كانت كل العبادات من حيث هى رسوم أو أوضاع هى شعائر توفيقية فى كل دين من الأديان السماوية أوغرها ، فإن جل العبادات فى دين الإسلام بصفة خاصة تتضافر جميعها فى توكيد الوحدانية لله والإذعان والامتثال له وطاعته .ومثل هذه الطاعة والامتثال لأوامره تعالى والانتهاء عن نواهيه هى من صميم الاعتقاد بألوهيته ووحدانيته ، بل هى نفسها – العبادة – المعرفة بالله ، ولأجلها خلق الله الإنسان لقوله تعالى : "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ"[1] . ومعنى هذا أن الدين يتطلب الاعتقاد أو المعرفة بالله ، وهذه المعرفة لابد فيها من الخضوع لألوهيته والإقرار بوحدانيته وهذا لا يكون إلا بالعبادة لأن الدين يتضمن الخضوع والذل ، ودين الله عبادته وطاعته والخضوع له بل إن الدين كله داخل فى العبادة على حد قول ابن تيمية [2] .

والدين إذا نظر إليه فى ذاته ، بل والعبادة بوصفها داخلة فيه هو فى جوهره الشعور الباطنى الذى يتعلق به المخلوق بخالقه ، وقوامه المحبة لله وحده والطاعة لأوامره والانتهاء عن نواهيه . بل إن كل ما يفعله العبد فى علاقته بمعبوده ، إن هو –فى رأينا– إلا ترجمة لهذا الشعور الباطنى الذى يربطه به . ولهذا كان ابن تيمية على صواب لما جعل الدين فى حقيقته هو من الأمور الباطنة فى العلوم والأعمال ، بل إن الأعمال الظاهرة التى داخلة فى نسيجه – الدين – لا تنفع بدون هذه الأعمال الباطنة [3].

---

(١) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .
(٢) ابن تيمية : العبودية – المؤسسة السعودية – القاهرة –١٩٧٨ ، ص٨ ، ٩ .
(٣) ابن تيمية : التحفة العراقية فى الأعمال القلبية المكتبة السلفية – القاهرة – ١٣٩٩ هـ ص٤٢ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ودلالة قول ابن تيمية تأتى من جهتين ، أولاهما أن جوهر العبادة هو بعينه جوهر الدين من حيث هو اعتقاد ، فى المقام الأول . وثانيتهما أن العبادة بصورها الظاهرة دون توافر هذه الأمور الباطنة - القلبية - لا قيمة لها . ومن ثم فإذا كانت الأعمال الظاهرة مطلوبة بوصفها داخلة فى الدين ، من حيث هى تعبير عن الطاعة لله ، فإنها لا قيمة لها بغير أعمال القلوب ، لأنها من أصول الإيمان وقواعده [١].

ومن هذه الجهة بالذات تكمن حقيقة العبادة فى الإسلام ، من حيث إن الإسلام فى حقيقته هو الاستسلام لله وحده . وهذا لا يتأتى بتمامه إلا بالإخلاص والصدق فى الإقرار بألوهيته والعبودية له وحده . لهذا كان الإسلام وحده لا يكفى وحده للتحقق بهذا الأصل الإيمانى على هذا النحو الأخير ، إذ لا يكفى الإقرار بالشهادتين عن طريق اللسان ، وإنما الاستسلام لله وحده ظاهرا وباطنا . وهذا هو الذى يحققه مقام الإيمان ، وفيه لا ينفك عمل الجوارح الظاهرة عن عمل الجوارح الباطنة ، لأن الإيمان - كما يقول ابن القيم - ظاهره قول باللسان وعمل بالجوارح الظاهرة ، وباطنه كذلك تصديق بالقلب وانقياد ومحبة الله ، ولا ينفع ظاهر لا باطن له على حد قوله[٢].

وإذا كان هذا هو جوهر الدين ، وهو نفسه جوهر العبادة ، فإن ذلك يعنى أن الدين والأخلاق لا ينفصلان ، مادامت الأعمال القلبية ضرورة لا تنفك عنها صور العبادات ، ومادام الإيمان نفسه لا ينفصل عن الاعتقاد بالجوارح الظاهرة والباطنة معا .

---

(١) ابن تيمية : التحفة العراقية فى الأعمال القلبية ص ٣٧ .

(٢) ابن القيم : الفوائد - المكتبة القيمة - القاهرة - ١٤٠٠هـ ص٨٥ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وإذا كان هذا هو أصل الدين ، فإن ذلك يعنى أن العبادة فى صميمها لا تنفصل عن هذا الجانب الخلقى والذى هو أساس الدين ، بحيث أن كل صورها يتخللها هذا الجانب الخلقى . وهو ما يلزم أن يتحلى به الفرد فى علاقته بالحق والخلق معا ، لأن الله ما فرض من الأعمال إلا لما أوجب من التحلى بمكارم الأخلاق[١] . وإذا كان ذلك - كذلك - فإن أصوله الاعتقادية بل وصور عباداته العملية تتضافر جميعها فى تدعيم هذا الجانب الخلقى ، ومن ثم كان الدين هو أقوى العوامل فى أخلاق العامة والخاصة [٢].

ولئن كانت العبادة هى الخضوع والطاعة لله وحده ظاهرا وباطنا ، فإن الاقتصار على هذا الجانب بالذات لا يكفى وحده أيضاً ، وإنما يلزم أن ينعكس أثر هذه العبادة على سلوك الإنسان فى علاقته بالخلق بحيث يكون ما عليه مع الحق . وهذا هو التدين الحقيقى ، الذى يعى رسالة الدين ، وجوهر العبادة الحقيقية لله تعالى ، وهو ما يستقيم فعلا مع عقيدة دين الإسلام وعباداته ، وما لم تكن العبادة على هذا النحو بالذات ، فإنها تصبح حقا صورة لا روح فيها ، أو هيكلا فارغا من المضمون .[٣]

---

(١) عبده (الأستاذ الإمام محمد) : رسالة التوحيد - مطبعة النصر للطباعة القاهرة - ١٩٦٩- ص١٤٩.

(٢) عبده (الأستاذ الإمام محمد) : رسالة التوحيد ص١١٢ .

(٣) التفتازانى (الدكتور أبو الوفا) مدخل إلى التصوف الإسلامى - دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٦ ص١٥ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وإذا كانت حقيقة العبادات على هذا النحو ، فلنبين إذاً كيف استطاع الصوفية النفاذ إلى حقيقتها أو بالأحرى إلى مضامينها الخلقية والروحية فى آن واحد ، بحيث تصبح عاملا أساسيا فى توكيد صلة الإنسان بالحق تعالى من ناحية ، وبحيث تكون كذلك تحقيقا للحياة الخلقية مع الخلق من ناحية أخرى .

الدلالات الخلقية والروحية للصلاة :

وإذ نبدأ بالصلاة ، فلأنها واحدة من أهم العبادات التى فرضها الحق على الخلق على يد كل أنبيائه من ناحية ،ولأنها من ناحية أخرى تحتل مكانة خاصة فى دين الإسلام بوصفه خاتم الأديان جميعها بدليل أن الإقرار بعقيدة الإسلام يبنى بعد الإقرار بالشهادتين بالصلاة والزكاة والصيام وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا . والصلاة - أيضا - أول فريضة فرضها الحق تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، وهى آخر ما أوصى به أمته ، وأخر ما يذهب به الإسلام وأول ما يسأل عنه العبد ، وليس بعد ذهابها دين ولا إسلام وهى لما كانت كذلك - الصلاة- فإن خطرها عظيم وأمرها جسيم على حد قول الجيلانى [١].بل ليس من العبادات ما يلحق العبد بمقامات المقربين إلا الصلاة .[٢]

وهى فضلا عن ذلك كله تعد واحدة من أهم العبادات ، فقد اجتمع فيها - كما يقول ابن عطاء الله السكندرى - ما لم يجتمع فى غيرها من

---

(١) الجيلانى : الغنية لطالبى طريق الحق طبعة مصطفى البابى الحلبى - القاهرة- الطبعة الثالثة ١٩٥٦جـ٢ص١١٠ .

(٢) ابن عربى: الفتوحات المكية - طبعة دار صادر بيروت جـ١ص٢٥٦ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الطهارة والصمت واستقبال القبلة بالتكبير والقراءة والقيام والركوع والسجود والتسبيح.....إلى غير ذلك ، فهى مجموع عبادات كثيرة على حد قوله [1] . بل إن سائر العبادات – كما يقول السهروردى البغدادى وسائل إلى تحقيق سر الصلاة[2] .

والصلاة لغة بمعنى الذكر والانقياد ، وهى فى جريان عبارات الفقهاء عبادة مخصوصة تطلق على هذه الأحكام المعتادة ، وهى أمر من الحق تعالى لعباده أن يقيموها[3] لقوله تعالى : "وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ" [4] ولقوله تعالى : "حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ"[5] وهى لهذا من لوازم المؤمنين لقوله تعالى : "إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا" [6] ؛ بل إنها خصيصة للمؤمنين المتقين لقوله تعالى : "هُدًى لِلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ

---

(١) ابن عطاء الله السكندرى : التنوير فى إسقاط التدبير تحقيق ، موسى محمد على ، عبد العال العربى ، دار التراث العربى – القاهرة ١٩٧٣ ، ص٢١٤–٢١٥ .

(٢) السهروردى البغدادى : عوارف المعارف دار الكتاب العربى – بيروت – الطبعة الثانية ١٩٨٣، ص ٣٠٤

(٣) الهجويرى : كشف المحجوب تحقيق الدكتورة إسعاد قنديل – مراجعة الدكتور يحى الخشاب طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة الطبعة الأولى ١٩٧٥ ، جـ٢ص٥٤٢ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٤٣

(٥) سورة البقرة : الآية ٢٣٨

(٦) سورة النساء : الآية ١٠٣

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ"[١] . وليس أدل كذلك على منزلة الصلاة فى الإسلام من قول النبى صلى الله عليه وسلم "بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة" [٢] .

وإذا كان الأصل فى العبادات جميعها كما فرضها الحق تعالى خشوع الأبدان الناشئ عن خشوع القلب وذله وانكساره ، فإن الصلاة من هذه الحيثية بالذات هى من أعظم العبادات التى يظهر فيها هذا الأمر الذى هو حقيقة العبادات على اختلاف صورها [٣].

ولما كانت الصلاة على هذا النحو ، فقد صارت عبادة تتجلى فيها كل صفات الخشوع والخضوع وإظهار العبودية لله ظاهرا وباطنا ، ولهذا فقد قرنها الحق تعالى بالصبر ، لأن فى تحقيقها لكل هذه الأمور ما يستوجب ذلك بدليل قوله تعالى "وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا " [٤]. فدلت هذه الآية - كما يقول ابن عطاء الله السكندرى - على أن فى الصلاة تكليفا للنفوس شاقا عليها ، لأنها - الصلاة - تأتى فى أوقات ملاذ العباد وانشغالهم فتطالبهم بالخروج عن ذلك كله ، إلى القيام بين يدى الله تعالى والفراغ عمن سواه[٥]

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢ ، والآية ٣

(٢) أنظر المحرر فى الحديث فى بيان الأحكام الشرعية لابن قدامه الحنبلى مكتبة السلام العالمية القاهرة - بدون تاريخ ص٣٢-٣٩- والحديث رواه الإمام مسلم فى صحيحه .

(٣) ابن رجب : الخشوع فى الصلاة ، المكتبة القيمة - القاهرة - الطبعة الثانية ، ١٩٨٣ ، ص٢٠ .

(٤) سورة طه : الآية ١٣٢

(٥) ابن عطاء الله السكندرى: التنوير فى إسقاط التدبير ص٢١٠

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وبالإضافة إلى ما سبق ، فإن قوله تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة وأنها لكبيرة إلا على الخاشعين توكيد لهذا المعنى ذاته ، فقد جعل الحق تعالى الصبر والصلاة مقترنين إشارة إلى أنه يحتاج فى الصلاة إلى الصبر على ملازمة أوقاتها والصبر على القيام بواجباتها ومستوياتها بالإضافة إلى الصبر الذى يمنع القلوب من غفلاتها[١] ولهذا قال تعالى : "وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ" [٢].

ومن البدهى أن معرفة شأن الصلاة على هذا النحو بالذات لا يتأتى على الوجه الأتم ، إلا بعد أن يعرف المؤمن أحكامها وشرائطها الظاهرة ، وهو الأمر الذى يحرص عليه الصوفية – كغيرها بطبيعة الحال ، فى الوقت الذى يحرصون فيه أيضا على استبيان معانيها الحقيقية بقلوبهم ، وتظهر بالتالى آثارها فى علاقتهم بالخلق كما هى بالحق تعالى ؛ ومن ثم فإن من أوجب الواجبات عندهم أو بالأخرى من أول آدابهم فى الصلاة أن يعلم المرء أحكامها وآدابها المشروعة وفضائلها نوافلها بل إن الأمر يستوجب عندهم كذلك كثرة مساءلة العلماء ، والبحث عما يحتاج إليه فى ذلك ، بما لا يسعه الجهل ، لأن الصلاة عماد الدين[٣] .

وإذ يفعل الصوفية ذلك ، فلأن من أهم ما ينبغى أن يفعله العبد فى عبادته للحق تعالى ، أن يعلم حقيقة ما كلفه الله تعالى به ، ولا يتأتى له

---

(١) المصدر السابق ، ص٢١٢

(٢) سورة البقرة : الآية ٤٥ .

(٣) الطوسى : اللمع تحقيق طه عبد الباقى سرور ، الدكتور عبد الحليم محمود – دار الكتب الحديثة – القاهرة – ١٩٦٠ص ٢٠٣ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

هذا الأمر ، إلا بالفقه فى أحكام العبادات أولا إذ لا تصح العبادة إلا بعد التفقه[١] .

لكن الصوفية حين يفقهون أحكام الصلاة لا يتوقفون عند حد العلم بشرائطها الظاهرة ، وإنما يجتهدون في الوقت نفسه فى إقامتها على الوجه الذى يجعلها مقبولة عند الله تعالى ، ومن ثم يلتفتون إلى دقائقها الباطنة وبحيث تكون بالقلب لا بالقالب وحده ، وهم فى هذا الشأن يزيدون عما حدده الفقهاء لما وقفوا عند أحكام الصلاة وشرائطها الظاهرة ، إذ الفقيه – كما يقول الغزالى – يعنى بالصحة إذا أتى بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط ، وإن كان غافلا فى جميع صلاته ، من أولها إلى آخرها ، مشغولا بالتفكير فى حساب معاملاته فى السوق ، إلا عند التكبيرة الأولى ، وهذه الصلاة لا تنفع فى الآخرة [٢].

فإذا شرعنا فى بيان المضامين الخلقية والروحية للصلاة عند صوفية الإسلام فإن أول ما نلتقى به عندهم أنها – الصلاة – تطهر أخلاقى بداية ونهاية ، وإذا كانت الطهارة ضرورة للدخول فى الصلاة بل وفى القيام بغيرها من العبادات ، فإنها تصبح خصيصة لا تنفك عنها الصلاة فى كل حركة من حركاتها ، وبحيث يتحقق بها المصلى دوما مع الحق والخلق معا .

---

(١) البغدادى (الخطيب) : الفقه والفقيه – تحقيق إسماعيل الأنصارى – مكتبة أنس بن مالك – القاهرة ١٤٠٠ هـ ص١٨ .

(٢) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ١ . طبعة مصطفى البابى الحلبى – القاهرة ، ١٩٥٧ ص١٩

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ومن الجلى أن الطهارة بهذا المفهوم بالذات ، لا يراد بها الطهارة من النجاسات والأوساخ الظاهرة وحدها ، بل ويراد أيضا بها الطهارة من الأوساخ الخلقية الباطنة .

وليس ببعيد أن يكون المراد من الطهارة بهذا المعنى الأخير هو الذى أشار إليه الحق تعالى لما قرن محبته للخلق بهذه الطهارة متلازمة مع التوبة فقال تعالى : "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ"(١).

وربما لهذا السبب عينه ، حرص الصوفية على التحقق بهذه المحبة ، ومن أجل ذلك فقد لزمتهم الطهارة فى كل أحوالهم لأنهم لا يدرون - كما يقول الطوسى - متى تأتيهم المنية(٢) ، مصداقاً لقوله تعالى : "فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ"(٣) .

ولعلهم لهذا السبب أيضاً ، أيقنوا أن الطهارة لا يراد بها الوقوف عند الطهارة الظاهرة التى قامت الحجة على ضرورتها للصلاة أو غيرها من العبادات ، وإنما يراد بها الطهارة الحسية والمعنوية . وهو أمر يوجبه الدين -كما يقول بعضهم من حيث إن الدين كله مبنى على الطهارة ، وبحيث يصبح لازماً على المرء أن يتطهر من الأوساخ ظاهراً وباطناً ، حتى يكون متشبهاً بالملائكة الكرام -كما يقول الشعرانى- ، فإنهم منزهون عن سائر المخلوقات عابدون لربهم بتلك الطهارة(٤) .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٢٢ .
(٢) الطوسى : اللمع ص ١٩٧ .
(٣) سورة الأعراف : الآية ٣٤ .
(٤) الشعرانى : أسرار أركان الإسلام -تحقيق عبدالقادر أحمد عطا- دار التراث العربى للطباعة والنشر - القاهرة - الطبعة الأولى ، ١٩٨٠ ص٣٦

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ولما كانت الطهارة الظاهرة ضرورة للصلاة بوصفها عبادة شرعها الله تعالى على جميع خلقه ، فإن الطهارة الباطنة هى الأخرى لا تقل فى ضرورتها عن تلك الطهارة الظاهرة وهذا أمر طبيعى لطائفة أخذوا على عاتقهم خلوص سرائرهم فى كل حال من أحوالهم مع الحق والخلق معاً .

ومن ثم فلا غرابة أن يؤكد بعضهم على أن طهارة الظاهر تكون بالماء وطهارة الباطن بالرجوع إلى حضرة الله تعالى ، لأنه إذا كانت الأولى ضرورة لطهارة البدن لتصح الصلاة ، فكذلك لابد من طهارة القلب لتصح الصلاة وتصح كذلك المعرفة بالله[١] .

ومن هذا الوجه يمكن القول أيضاً أن الطهارة الظاهرة إذا كان يراد بها رفع النجاسات والأوساخ الظاهرة عن الأعضاء ، فإن الطهارة لا تقل فى خطرها وأهميتها عنها ، من حيث هى تزكية للنفس الأمارة وطهارة لها من النجاسة المعنوية التى قد تفسد الصلاة كالحقد والحسد والبخل والحرص والطمع ومحبة الدنيا وغيرها[٢] ، ومن حيث إن الفواحش والآثام قد تكون ظاهرة وباطنة لقوله تعالى : "قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ"[٣] ، ومن حيث إن المرء فى الآن نفسه مأمور بذلك ظاهراً وباطناً لقوله تعالى : "ذروا ظاهر الإثم وباطنه"[٤] .

---

(١) الهجويرى : كشف المحجوب ، جـ٢ ص٥٤٢ .

(٢) ابن عربى : أسرار الوضوء ، مخطوط مجاميع ٣٢٠ تصوف - دار الكتب المصرية - ورقة٢٠ .

(٣) سورة الأعراف :الآية ٣٣ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ١٢٠ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وعلى هذا النهج يمكن أن نفهم الدلالة الحقيقية لمفهوم الوضوء عند الصوفية المسلمين ، فقد صار عندهم بمعنيين : أولهما يتعلق بظاهر البدن ، وثانيهما : يتعلق بالقلب أو الروح . والأول هو الذى يختص بالأعضاء الظاهرة وذلك مما اهتم ببيان شرائطه الفقهاء ، والثانى هو الذى يحرص عليه الصوفية دوماً ، وهو ما يختص بطهارة النفس عن مذموم الأخلاق وعن كل ما سوى الله ، وكسب الأخير صعب ، لأنه يستلزم من المرء أن يمشى على غير مرادات نفسه[١] .

وإذا كان الوضوء ضرورة لتحقيق الطهارة الصغرى من الحدث فى جوارح الجسد وأطرافه فى كل ناحية ، فإن هذا هو الوضوء الظاهر الذى يحقق للمرء فى صلاته مقام الإسلام -كما يقول الشعرانى- أما الوضوء الذى يحقق الإيمان.فهو الذى يحقق به طهارة الباطن وعمارته بالتوبة عن كل مذموم من الأخلاق.التى لا يحبها الله[٢] .

وليس الصوفية بدعاً فى هذا المفهوم الذوقى الذى خلعوه على الطهارة وفهموا منه دلالة الوضوء كضرورة للدخول فى الصلاة ، لأن النجاسة -كما يقول ابن القيم الفقيه الحنبلى – قد تكون محسوسة ظاهرة وقد تكون معنوية باطنة تغلب على الروح والقلب[٣] .

ويمكن أن يفهم هذا المعنى من التأمل فى قوله تعالى :" يا أيها المُدَّثِّر قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ"[٤] ، وقوله

---

(١) ابن عربى : أسرار الوضوء – مخطوط – ورقة ١٧. دار الكتب المصرية .
(٢) ابن عربى : أسرار الوضوء – مخطوط مجاميع ٣٢٠ تصوف .
(٣) ابن القيم : إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان – دار التراث العربى للطباعة والنشر – القاهرة – الطبعة الأولى ١٩٨٣م جـ١ ص٥٦ .
(٤) سورة المدثر : الآيات من ١-٤ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

تعالى : "أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ"(١) . فإن جمهور المفسرين من السلف ومن جاء بعدهم -كما يقول ابن القيم- على اتفاق أن المراد بالثياب ههنا القلب والمراد بالطهارة إصلاح الأعمال والأخلاق(٢) . بل إن ابن القيم ليذهب إلى حد أبعد من ذلك حين يؤكد أن كل الأعضاء الإنسانية كما يلزمها الطهارة الظاهرة ، فكذلك يلزمها الطهارة الباطنة ، ولهذا فإن الله لما شرع الوضوء فلكي يطمئن لنظافتها وطهارتها من الأوساخ الحسية وأوساخ القلوب(٣) .

ولا نزاع في أن تحقيق الطهارة الثانية بوصفها كمالا للدخول في الصلاة أمر صعب أو بالأحرى فإن حقيقة الوضوء المعنوى هو الأشق على النفس ، نظراً لعموم تعلقه بالباطن ، ولهذا يجب على كل من يريد الدخول على حضرة الله أن يستفرغ من باطنه خبث المعصية ولا يترك في باطنه ولا في ظاهره بقية منها من أوصافه النفسانية ، لأن النفس الأمارة هي أخبث الموجودات على حد قول بعضهم(٤) .

---

(١) سورة المائدة : الآية ٤١ .

(٢) ابن القيم : إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان جـ١ ص٥٠ .

(٣) ابن القيم : مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة - صححه وعلق عليه محمود حسن ربيع - الطبعة الثالثة ١٩٧٩ ، مكتبة حميدو - الإسكندرية ص ٣٥١ .

(٤) ابن علوية : المنح القدوسية في شرح المرشد المعين بطريق الصوفية ، تحقيق سعود القواص - دار ابن زيدون - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٨٦ ص٩٤ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وليس من شك فى أن تحقيق الطهارة الثانية هو تأكيد على ضرورة استفراغ القلب بكليته ليكون أهلاً للدخول فى حضرة الحق تعالى ، من حيث إن الصلاة ذاتها حضور دائم مع الله أو هى بالأحرى ربد أن تكون كذلك ، وهى -الصلاة- لما كان الكمال فيها لابد أن يكون على هذا النحو ، فلابد أيضاً أن يكون الوضوء من جنسها ، ولأجل هذا يلزم حضور القلب فى الوضوء ، بنفس حضوره فى الصلاة ذاتها ، لأنه إذا دخل السهو الغفلة فى الوضوء ، فقد دخلت الوسوسة والغفلة فى الصلاة كذلك[١] .

ولهذا السبب كانت طهارة القلب بالذات لا تقل فى أهميتها عن طهارة الجسد للدخول فى الصلاة عند الصوفية ، لأنه يبعد أن يكون المراد بقوله عليه السلام الطهور نصف الإيمان عمارة الظاهر بالتنظيف وإفاضة الماء وإلقائه ، وتخريب الباطن وإبقائه مشحوناً بالخبائث والأقذار هيهات هيهات على حد قول الغزالى[٢] .

ولهذا السبب فإن المصلى ينبغى أن يوقن أن الطهارة الباطنة لا تقل عن الطهارة الظاهرة ، إذ النظافة فى الباطن لا يقل خطرها عن نظافة الظاهر . بل إن أمر الصلاة ومقامها يستدعى الاثنين معا ومن يهتم بنظافة المظهر - الجسد وأعضائه ، دون نظافة الباطن - القلب - لم يلتفت إلى القصد الحقيقى من الطهارة والوضوء ، ومثل هذا العبد كمثل من أن أراد يدعو ملكا إلى بيته ، فتركه مشحونا بالقاذورات ، واشتغل بتخصيص ظاهر الباب البرانى من الدار ، الذى هو المطلوب من النظافة [٣] .

---

(١) السهروردى البغدادى : عوارف المعارف ، ص٢٩٧ .
(٢) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ١ ص١٢٥ .
(٣) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ١ ، ص ١٣٤ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وقد بلغ من حرص الصوفية على أمر الصلاة من هذه الحيثيـــة – الطهارة – ظاهرا وباطنا ، أن جعلوها مراتب تتجلى فى كل واحدة منهـــا معاني الطهارة بنوعيها ، فأولها – كما يقول الغزالى – تطهير الظاهر من الأحداث والأخباث والفضلات ، والثانية تطهير الجوارح عـــن الجرائـــم والآثام ، والثالثة تطهير القلب من الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتـــة ، والأخيرة – الرابعة – تطهير السر عما سوى الله تعـــالى وهـــى مرتبـــة الأنبياء والصديقين [1] ولا شك أن الأخيرة هى أصعب مراتـــب الطهـــارة وهذا طبيعى لأنه كلما عز المطلوب –كما يقول الغزالى– وشرف صعـــب مسلكه وطال طريقه وكثرت أعبائه [2] .

بل أكثر من هذا ، فإن كل ركن من أركان الوضوء لا ينفك عـــن هذا المفهوم الذوقى ليتحقق المراد من الطهارة والدخول منها فى حضـــرة الحق تعالى فحين يستنجى العبد ويتخلص من نجاسة الظـــاهر عليـــه أن يطلب النجاة من محبه الغير بالباطن وحين يغسل المرء اليدين فإن عليـــه أن يغسل قلبه من حب الدنيا والتعلق بها وحين يجعل الماء فى فمه ، فلابد له كذلك من أن تخليته عن ذكر الغير وهكذا فى كل ركـــن مـــن أركـــان الوضـــوء ، فإن الاستنشاق دلالة على كراهيـــة الشـــهوات ، ولابـــد أن يصحبه ذلك ، غسل الوجه ، يستلزم الإعراض عـــن المألوفـــات ، وأمـــا المسح على الرأس فلابد معه من تسليم الأمور كلها للحق تعـــالى ، وأمـــا غسل القدمين ، فلابد أن يصحبه عند القيام به أنه لا تجب عليه – العبد – الإقامة إلا على نحو ما أمر الله تعالى به[3] .

---

(١) الغزالى : نفس المصدر جـــ١ ص ١٢٥ .
(٢) الهجويرى : كشف المحجوب جـــ٢ ص ٥١٢ .
(٣) الهجويرى : كشف المحجوب جـــ٢ ص ٥١٢ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وليس من ناقلة القول أن نؤكد فضلا عما أكدناه من قبل أن مفهوم الطهارة على هذا النحو الذى يحرص عليه الصوفية يجعل من الصلاة عملا أخلاقيا يتسق مع مفهوم العبادة الحقيقية فى الإسلام ، مادام الأصل فى كل عبادة شرعها الله هو تحقيق الكمال الخلقى والروحى للمؤمن فى علاقته بالحق والخلق معا . ومن هذا الوجه بالذات ، تصبح الطهارة بحسب هذا المفهوم مدخلا لابد منه للصلاة بل ولكل عبادة فرضها الله . ولا نزاع فى أن الطهارة المعنوية هى التى تحقق الكمال الخلقى المنشود من الصلاة ومن كل العبادات ، وبحيث يصير المرء بها بمنأى عن دنس المعاصى والفحش فى القول والعمل ظاهرا وباطنا .

ومن ثم فليس غريبا -فى رأينا- ولا مبالغة فى القول من الصوفية حين يؤكدون على ضرورة الطهارة المعنوية للصلاة جنبا إلى جنب الطهارة الحسية أو البدنية ، حتى أن بعضهم قد قال أخذ علينا العهود ألا ننام قط إلا عن طهارة باطنة ، فإنها كالظاهرة سواء بسواء ، وذلك كأن ينام أحدنا والعياذ بالله عن غل أو حسد أو غش أو مكر أو خديعة أو تكبر أو ساخطا على تقدير به [1] ، ولعمرى فى أن كل إنسان بحاجة إلى الخلاص من كل هذه النقائص الخلقية فى كل نفس من أنفاسه ، وكلها ولا شك تمثل أوصافاً سلبية يتعين للمسلم أن ينأى تماماً فى كل معاملاته مع الخلق كائنا من كانوا .

وأول ما يتعين الوقوف عليه من أمر الصلاة بعد شرط الطهارة الظاهرة والباطنة هو أن يعى المصلى ما يقوم به وما يتلفظ به فى كل

---

(١) الشعرانى : البحر المورود فى بيان المواثيق والعهود - المطبعة الميمنية - بالقاهرة - بدون تاريخ - ص ٧٨ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ركن من أركانها ، حتى تكون صلاته كلها مقاما حقيقيا له بين يدى الله تعالى . وإنما يحصل هذا الأمر بداية من النية وتكبيرة الإحرام ، بحيث إذا جاء وقت الصلاة ، فإن المصلى عليه أن يستحضر فى قلبه النية التى ينوى بها التقرب إلى الله عز وجل ، وإنما يتحقق ذلك بإخراج ما فى قلبه من كل ما سوى الله حتى لا يكون فى قبله سواه[١] .

وحضور النية وتحقيقها على هذا النحو ينبغى أن يعيه كل مصل لأن به يتحدد روح الصلاة من حيث هى انتهاض القلب والباطن ودخوله إلى عالم الملكوت ، وهذا لا يكون بكماله إلا بعد خروجه بكليته عن عالم الدنيا وشواغلها حتى يدخل فى العالم القدسى العلوى ، فإذا كان ذلك كذلك فإن قلبه لا يكون فيه ما يشغله عن كمال الصلاة[٢] .

وإذا كانت النية وتكبيرة الإحرام معا هما صفوة الصلاة ، بحيث لا تصح الصلاة إلا بهما[٣] ، فإن ذلك يلزم المصلى أن يفطن إلى خطرهما لتكمل صلاته منذ البداية . ومن هذا الوجه بالذات صارت النية بذلك المفهوم الذوقى إشارة لطيفة عند الصوفية يراد بها انعقاد القلب فى ذلك التوجه إلى الله [٤] .

وأصبحت تكبيرة الإحرام هى الأخرى لا تقل فى دلالتها الروحية فى الصلاة عن النية عندهم ، فهى تلزم المصلى بأن يعى ما يتلفظ به فيها وما يقوم به من حركات بحيث إذا رفع يديه ليؤديها فينبغى أن يرفع معها

---

(١) الشعرانى : أسرار أركان الإسلام ص ٤١ .
(٢) الشعرانى : نفس المصدر ، ص ٤١-٤٢ .
(٣) الطوسى : اللمع ص ٢٠٤ .
(٤) الجيلى (عبدالكريم) : الإنسان الكامل فى معرفة الأوائل والأواخر طبعة صبيح - القاهرة - ١٩٦٣ جـ٢ ص ٨٧.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

قلبه إلى الله أيضا ، ولا يكون ذلك إلا إذا لم يكن فى قلبه حقيقة إلا الله ، وبحيث يمتلئ قلبه كذلك ولا يكون فيه حقيقة شيء أكبر من الله تعالى(١).

وهكذا تصبح الصلاة منذ البداية توجها حقيقيا يرمى به المصلى دوام اتصاله بالله فى كل لحظة أو برهة من حياته ، مادامت صلاته خالصة منذ بدء الدخول فى حضرة الحق تعالى ، من حيث إن الإخلاص لله عز وجل لازم وواجب فى جميع الأعمال (٢) لأن الحق تعالى يقول **"وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين"** (٣) .

ومادامت الصلاة عبادة فقد لزم بالتالى أن يتحقق فيها كمال الإخلاص شأنها شأن كل عبادة مشروعة بل شأن كل عمل مأمور به من الله ، لأن العمل لا يصير عملا حقيقياً إلا بالإخلاص ، إذ هو - الإخلاص - بمنزلة الروح للجسد (٤) .

وإذا كانت الصلاة منذ البداية متضمنة إخلاص القصد والتوجه إلى الله ، فإنها حينئذ تكون بالقلب لا بالقالب . ولكى يكتمل هذا المفهوم الذوقى الحقيقى للصلاة ، فينبغى ألا تنفك الصلاة عن الخشوع والخضوع التام من جانب المصلى ظاهرا وباطنا بحيث يكون قلبه خاشعا ، وجوارحه ساكنة خاشعة بين يدى الحق تعالى ، لأن من لم يخشع فى صلاته فما صلى

---

(١) المحاسبى : فهم الصلاة - تحقيق محمد عثمان الخشت - مكتبة القرآن - القاهرة ١٩٨٣ ص ٥٢ .

(٢) المحاسبى : القصد والرجوع إلى الله - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٨٦ ص ٢٥٩ .

(٣) سورة البينة : الآية ٥ .

(٤) الهجويرى : كشف المحجوب جـ٢ ص ٢٩٩ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

حقيقة [١] . ومن ثم أكد الغزالى على أن الصلاة قرينة الخشوع وحضور القلب [٢] .

وهذا الخشوع أمر مطلوب من المصلى أمر به الحق تعالى أن يحققه فى الصلاة لما قال تعالى : "وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ" [٣] ولهذا صارت مثل هذه الصلاة بالذات قرينة للمؤمنين المفلحين ، بدليل أن الله تعالى قد مدحهم لخشوعهم فى صلاتهم لقوله تعالى "قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون" [٤] .

ولا يتأتى العبد القيام بالصلاة على هذا الوجه ، إلا إذا أيقن بكليته أن الله تعالى يقبل عليه كما هو مقبل بصلاته على الله ، ولهذا فعليه أن يحسن الوقوف بين يديه . وهذا يوجب عليه أن يخشع فى صلاته ولا يلهو، فقد تكون هذه الصلاة - كما يقول المحاسبى - آخر صلاة يصليها ، فتأتى صلاة أخرى وهو ميت أو مريض أو مغلوب عنها على حد قوله[٥].

ومثل هذه الصلاة كانت دأب المؤمنين المتقين المحافظين على إقامة الصلاة كما أمرهم بها الحق تعالى ، وهى الصلاة التى كان عليها السلف الصالح ، فقد كان إذا قام أحدهم للصلاة كأنه عود من الخشوع [٦].

---

(١) ابن عربى : الفتوحات المكية السفر الثامن ص ١٥٩ .
(٢) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ١ ص ١٤٥-١٧٦ .
(٣) سورة البقرة الآية ٤٥ .
(٤) سورة المؤمنون الآية ٩ .
(٥) المحاسبى : فهم الصلاة ص ٥٩ .
(٦) المحاسبى : كتاب الوصايا تحقيق وتعليق عبدالقادر أحمد عطا - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٨٦ ص ١٤١ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

بل لقد روى أئمة المفسرين من سلف الأمة أن قوله تعالى "سيماهم فى وجوههم من أثر السجود"[١] أنه من أثر الخشوع فى الصلاة[٢] ومن ثم فلا عجب أن يقول سفيان الثورى إن من لم يخشع فى صلاته فقد فسدت صلاته .

وحين تصبح الصلاة هكذا خشوعا وخضوعا دائمين من المصلى بين يدى الله بجوارحه الظاهرة ، والباطنة ، فإنها تصبح فعلا صلاة حقيقية يقبلها الحق تعالى ، بل ولا غرو أن يرفعه الله بها إلى أعلى عليين!!

فإذا لم تكن الصلاة هكذا فقد صارت مجرد حركات آلية يؤديها المصلى ، مهما نطق به لسانه من الكلمات !! .

وقد بلغ من حرص الصوفية فى وعيهم بأمر الصلاة من هذه الحيثية - الخشوع الدائم لله - أن قال أحدهم منذ أربعين سنة أشتهى أن أضع يدا على يد فى الصلاة ما يمنعنى إلا أن يكون قد أظهرت من الخشوع ما ليس فى القلب مثله [٣] .

وأظهر ما يكون فيه الخشوع والإذعان من المصلى فى صلاته لله ، هو ما يكون عليه بقلبه وجوارحه فى ركوعه وسجوده بوصفهما فعلين من أفعال الصلاة ، ففيهما يستشعر العبد بين يدى ربه فى حال ركوعه وسجود صفات العزة والكبرياء والعظمة والعلو لله وحده [٤] .

---

(١) سورة الفتح : الآية ٢٩ .
(٢) ابن رجب : الخشوع فى الصلاة ص ٢٠ .
(٣) السهرودى البغدادى : عوارف المعارف ص ٣٢٠ .
(٤) ابن رجب : الخشوع فى الصلاة ص ٢١-٢٢ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وهذا المفهوم الذوقى للصلاة بوصفها خشوعاً وخضوعاً دائما لله ، يتجلى بوضوح فى الركوع أيضاً ، إذ يتجلى فيه حقيقة أعظم مظاهر الخضوع لله والإذعان له ظاهراً وباطناً .ذلك لأن الأصل فى الركوع أو القصد المراد منه حقيقة ليس الركوع بالجسد وحده ، وإنما هو كما يقول الشعرانى خضوع النفس والروح باطنا بين يدى كبرياء الله تعالى الجليل العظيم ، ولهذا فقد أمر المصلى أن يقول فى ركوعه سبحان ربى العظيم[١].

ولما كان هذا شأن الركوع فى الصلاة حقيقة ، كان بالتالى ركنا مهما من أركان الصلاة لا يخلو من دلالة أخلاقية وروحية معا . ففيه يكون التواضع والخشوع إذعانا لعظمة الله تعالى ، ومن ثم كان الركوع بمثل هذه الكيفية من شأن المؤمن الكامل فى صلاته . ومما يدل على هذا أن العرب قبل الإسلام كانت تأنف منه ولا تفعله على نحو ما يدل عليه قوله تعلى "**وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون**" [٢] .

لكن الركوع هنا لا ينبغى أن يكون مفهوما منه هو مجرد الركوع بالجسد ، فهو وإن كان يتضمن الذل بمظاهر الجسد ، فلابد أن يخضع القلب لله ويذل له وحده ، وحينئذ يتم خضوع العبد بباطنه وظاهره لله عز وجل وحده [٣] .

وتفصيل الأمر فى دلالة السجود عند الصوفية أو بالأحرى ما ينبغى أن يكون عليه السجود -عندهم- أنه إظهار لخضوع الإنسان وانكساره لربه ، من حيث إن وضع الإنسان لوجهه فى السجود على

---

(١) الشعرانى : أسرار أركان الإسلام ص ٤٢ .
(٢) سورة المرسلات : الآية ٤٨ .
(٣) ابن رجب : الخشوع فى الصلاة ص ٢٦ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الأرض يكمن فيه معنى الذل والانكسار ، ففى هذه اللحظة أيضا يشاهد من أسفله علا ربه ، ولهذا فقد أمر بأن يقول فى حال سجوده سبحان ربى الأعلىَ [١] .

بل ليس هذا فقط ، ما ينبغى أن يكون عليه المصلى فى حال سجوده لله وإنما عليه أن يوقن بقلبه أن الأدب فى السجود يملى عليه ألا يكون فى قلبه فعلا شيء أقرب إليه حقيقة من الله تعالى ، لأن أقرب ما يكون عليه العبد عند ربه هو ما يكون عليه فى حال السجود [٢] .

وعله الأمر فى دلالة السجود على هذا النحو ، هو أن فعل السجود – كما يقول ابن رجب الفقيه الحنبلى – هو أعظم ما يظهر فيه ذل العبد لربه، حيث قد جعل أشرف أعضائه وأعزها عليه وأعلاها – وجهه – على الأرض ، فدل هذا أو ينبغى أن يدل على انكسار القلب وتواضعه وخشوعه لله [٣] ، ولهذا قال تعالى "**واسجد واقترب**" [٤] .

والصلاة أيضا وعى وحضور دائم بين يدى الله تعالى ، وبدون هذا الحضور تكون فاقدة لمعناها الحقيقى بوصفها اتصالا روحيا بين العبد وربه . ولأجل أن يتحقق فى الصلاة هذا المعنى الجوانى فلا بد من أن يلازم هذا الحضور المصلى منذ اللحظة التى يدخل فيها حضرة الصلاة. بل ولابد أيضاً ألا ينفك هذا الحضور عنه فى كل ركن من أركانها . وإنما يحصل هذا الحضور بداية بأن يقبل المصلى على الله كإقباله عليه تعالى يوم القيامة ووقوفه بين يديه ، بل إن على المصلى أن يتذكر فى اللحظة التى يدخل فيها للصلاة – كما يقول الطوسى – بين يدى من هو واقف [٥].

---

(١) الشعرانى : أسرار أركان الإسلام ص ٤٣ .
(٢) الطوسى : اللمع ص ٢٠٦ .
(٣) ابن رجب : الخشوع فى الصلاة ص ٢٦ .
(٤) سورة العلق : الآية ١٩ .
(٥) الطوسى : اللمع ص ٢٠٥ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ولئن كان المصلى منذ بداية وقوفه فى الصلاة متجها بوجهه ناحية القبلة ، التى هى بيت الله الحرام ، فإن عليه أن يعى هذه الوجهة تماما ، لأن من لم يجعل الله قبلته على الحقيقة -كما يقول بعضهم- فسدت عليه صلاته [١] .

ومعنى هذا أن المراد من توجه القلب واستقباله للقبلة فى الصلاة ، ليس هو الوقوف بالجسد تجاه البيت الحرام ، لأن الحق تعالى يتقدس أن تحدده الجهات ، وإنما المراد هو المعنى الباطن ، فهو الأصل وهو توجه القلب بكليته نحو فاطر السموات والأرض . ومن ثم يتعين على المصلى أن ينظر حقيقة وهو بين يدى الله أمتوجه إلى أمانيه وهمه فى البيت والسوق متبع للشهوات ، أو مقبل على فاطر السموات [٢] .

ويمثل هذا الفهم الروحى العميق يتحدد المقصود حقا من استقبال القبلة فى الصلاة فتوجه المصلى إليها على هذا النحو ليس عملا آليا يتوقف فيه عند حد الوقوف بجسده الظاهر ، وإنما يستلزم منه وقوف قلبه وامتلائه كيانه بكليته بالشعور بالألوهية .

وإذا كان الخشوع أمر لازما فى الصلاة ، بل هو من لوازمها التى لا تنفك عنه ، فإن هذا الخشوع لكى يكون على حقيقته فلابد فيه أيضا من الحضور ، حتى يصبح فى القلب والقالب معا . وذلك هو الخشوع بالمعنى الجوانى إن جاز التعبير ، ومن ثم فان المصلى يكون حاضرا حقا بكل

---

(١) السلمى : طبقات الصوفية - تحقيق نور الدين شريبة مكتبة الخانجى - القاهرة الطبقة الثانية ١٩٦٩ ص ٤٦٩ .

(٢) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ١ ص ١٦٧ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

جوارحه الظاهرة والباطنة مع الله . وحينئذ تصبح الصلاة فعلا حضورا حقيقيا من المصلى بين يدى الحق تعالى . وعلة الأمر تكمن فى أن الحركات الظاهرة إذا لم يكن لها من الباطن حضورا تثبت به ، ويظهر عنها ، فلا قيمة لها فى تلك الحالة ، بل لا يظهر لها وجود [١].

ومن ثم يمكن القول أن المراد بالحضور فى الصلاة إذاً هو دوام حضور القلب لينعكس حضوره على كل الجوارح الظاهرة ، لأن كل الأعمال الظاهرة والباطنة يزكيها عمل القلب أو يخرجها إذ ليس للأعضاء الظاهرة حركة ولا سكون فى طاعة شرعية ولا معصية - كما يقول ابن عربى - إلا عن أمر القلب وإرادته [٢] .

لهذا السبب فقد ألح الصوفية - وهم محقون - فيما ألحوا عليه فى أمر الحضور فى الصلاة على هذا النحو ، لأن الصلاة قرينة الخشوع وحضور القلب ، وهى لابد أن تكون كذلك ، والدليل على هذا - كما يقول الغزالى قوله تعالى : **"وأقم الصلاة لذكرى"** [٣] فظاهر الأمر الوجوب ، والغفلة تضاد الذكر ، ومن ثم فمن غفل فى جميع صلاته كيف يكون مقيما للصلاة [٤] .

وليس هذا الحضور - كما تقدم القول - ضرورة للدخول فى الصلاة فقط ، بل لابد من الحرص عليه فى كل ركن من أركانها إن فى

---

(١) ابن عربى : الفتوحات المكية - السفر السابع ص ١١٤ .

(٢) ابن عربى : مواقع النجوم ومطالعة أهلة الأسرار والعلوم - مكتبة صبيح - القاهرة - ١٩٦٥ ص ١٣٢ .

(٣) سورة طه : الأية ١٤ .

(٤) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ١ ص ١٥٩ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الأفعال أو الأقوال . وتفصيل هذا الأمر ، أن الصلاة لما كانت متضمنة القراءة والذكر والركوع والسجود والقيام والعقود ، فلابد أن يكون الحضور فى كل هذه الحركات من ناحية . ثم هو لابد أن يكون مصاحبا لما يقوله المصلى فى تلك الحركات من ناحية أخرى .

ومن هذا الوجه الأخير فإن ما ينطلق به المصلى من كلام لابد فيه من الحضور بالقلب مع حركة اللسان . فليس المراد من هذا الذكر – والذى هو كلام الله – مجرد تحريك اللسان بالحروف والأصوات ، لأن تحريك اللسان بالهذيان ما أخفه على الغافل ، وليس هذا شأن المصلى حقيقة لله ، وعلى هذا فلا بد للمصلى فى حال الذكر والقراءة والنطق من الحضور ، ولا يكون هذا الأمر ، إلا إذا أعرب النطق عما فى الضمير ولا يكون معربا عما فى الضمير – كما يقول الغزالى – إلا بحضور القلب [1] .

وإذا تحقق الحضور فى الصلاة فيما ينطق به المصلى من أقوال فى صلاته ، فقد تحقق فيها – الصلاة – معنى المناجاة بين العبد والرب ، من حيث إن قوام هذه المناجاة هو كلامه تعالى ، وهو القرآن ، وما قد ينطق به العبد فى ركوعه وسجوده من أذكار [2] .

ومادام الآمر هكذا ، فيتعين إذاً على المصلى أن يعى ما ينطق به اللسان ولا يكون هذا المر بتمامه إلا بأن يجرى فى قلبه ما يجرى على لسانه وكل مصل لا يكون فى صلاته بمثل هذا الحضور فكأنه يتحدث فى

---

(١) الغزالى : المصدر السابق ، جـ١ ص ٢٦٤ .

(٢) ابن عربى : الفتوحات المكية – السفر الثامن ص ١٦٦ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

صلاته مع غير الله فى قلبه ، وحينئذ فما هو بالذى يناجى ربه ، لأن حالة المناجاة مع الله حقيقة ، لا ينبغى أن تترك فيه - المصلى - بقية لغير الله تعالى وكلامه فى قلبه ، وإذا لم يفعل المصلى هذا فهو مصل بصورته الظاهرة من قيام وركوع وسجود ، ولكنه غير مصل بباطنه ، والذى هو المطلوب حقيقة من الصلاة (١) .

ومن البدهى أن حدوث هذا الأمر فى الصلاة يبقى مرهونا بدوام الحضور مع الله فى كل لحظة من اللحظات التى يقف فيها المصلى بين يدى الله ، وفى كل ما ينطق به من أقوال ، ومن البدهى - أيضا - أن قوام الأمر كذلك ألا يكون فى قلبه - المصلى - شىء غير الله الذى هو بين يديه ، فإذا كان هذا دأبه ودينه مع الله فى كل أحواله فى الصلاة ، فحينئذ يعرف كلامه ، ويأخذ من كل آية ذوقها لأنه ليس له من صلاته حقيقة إلا ما عقل (٢) .

ومن هذه الحيثية يمكن أن ندرك العلة فى ضرورة حضور القلب فى الصلاة ، لأن روح كل عبادة إنما فى الحضور والخشوع الدائم فى الإتيان بكل أفعالها وكل عبادة لا يتحقق فيها هذا الحضور ولا تجمع العبد بقلبه بها ، فهى عبادة لا عبادة على حد قول الشعرانى !! (٣) .

وبمثل هذا الحضور الذى لا ينفك عنه قلب المصلى وجوارحه ، يتحقق الكمال فى الصلاة ، وتصبح حقيقة فعلا حقيقيا يقوى صلته بالله أو بالأحرى تحقق له معية الحق تعالى به .

---

(١) ابن عربى : نفس المصدر ، السفر السابع ص ١٤ .
(٢) الطوسى : اللمع ص ٢٠٥ .
(٣) الشعرانى : لواقح الأنوار القدسية فى بيان العهود المحمدية ص ٢٨٥

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ويمكن أن يتحقق كل إنسان بمثل هذه الحالة إذا دخل فى صلاتـــه وحرص على إقامتها بهذه الكيفية ولا يتأتى هذا بطبيعة الحالة إلا إذا لـــم يكن المصلى مشغول القلب بشىء قل أو كثر ، لأن الأكياس – كما يقـــول السهروردى البغدادى – لم يرفضوا الدنيا إلا ليقيموا الصلاة كما أمـــروا . إذ لما كانت الدنيا شاغلة للقلب ، رفضوهـــا غـــيرة منهـــم علـــى محـــل المناجاة[١].

وهذا الأمر يوجبه عندهـــم قولـــه تعـــالى : "وأقـــم الصـــلاة لذكرى"[٢].فهو يدل على أن الصلاة حقيقة للذكر ، أو هى ذكر دائم لله ، فإذا كان هذا هو شأن الصلاة فكيف يقع فيها النسيان [٣] ولهذا أيضا كـــان تنبيه الحق تعالى فى قوله "يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ" [٤] .

ومن الطريف أن تحليل الصوفية للصلاة بهذا المفهوم الذوقى قـــد فطن إليه ابن سينا (ت٤٢٨هـــ) ، فالصلاة عنده على قسمين الأول ظاهر وهو الرياضى ، أى ما يتعلق بالظاهر ، وهو المأمور به شرعا ، والثانى باطن وهو الحقيقى . والقسم الأول عنده – الظاهر – هـــو مـــا يتعلـــق بحركات الصلاة وأفعالها ، ولكن الثانى –الباطن– هو ماهية الصلاة أو هو القصد الحقيقى منها ، بوصفها اتصالا ومناجاة لله وهو الأمر الذى جعـــل

---

(١) السهروردى البغدادى : عوارف المعارف ص ٣١٩ .
(٢) سورة طه : الآية ١٤ .
(٣) السهروردى البغدادى : عوارف المعارف ٣٢٠ .
(٤) سورة النساء الآية :٤٣ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الصلاة عند ابن سينا مشاهدة للحق بالقلب الصافى والنفس المجردة المطهرة عن الأمانى [١] .

ومعنى هذا أن مقصود الصلاة من حيث هى اتصال ومناجاة الله تعالى ، لا يكون بالأعضاء الحسية ولا بالألسن الحسية ولكنه فى مفهوم ابن سينا بوصفه فيلسوفاً تضرع إلى الرب بالنفس الناطقة العالمة العارفة بوحدانية الحق تعالى [٢] .

فإذا كانت الصلاة بهذا المعنى الأخير فإنها تصبح - كما يقول ابن سينا- هى المشاهدة الربانية ، والتعبد المحض الذى هو المحبة الإلهية والرؤية الروحانية [٣].

ومن المهم أن نذكر أيضا أن تأكيد الصوفية على أمر حضور القلب فى الصلاة قد فطن إليه كذلك الإمام محمد عبده (ت١٩٠٥م) لما وقف هو الآخر عند دلالتها الحقيقية بوصفها عبادة من العبادات . فقوله تعالى "**فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون**" [٤] ، إنما يدل على أن الله تعالى قد توعد الذين يأتون بصورة الصلاة من الحركات والألفاظ مع السهو عن معنى العبادة فيها ، وسرها المؤدى إلى غايتها [٥].

---

(١) ابن سينا : رسالة فى ماهية الصلاة - ضمن مجموعة رسائل أخرى جمعها الدكتور حسن عاصى فى كتابة التفسير القرآنى واللغة الصوفية - المؤسسة الجماعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٨٣ص٢١٤ .

(٢) ابن سينا : رسالة فى ماهية الصلاة ص ٢١٦ .

(٣) العراقى (الدكتور عاطف) ثورة العقل فى الفلسفة العربية - دار المعارف- القاهرة - الطبعة الثالثة ١٩٧٦ ص ١٩٣ .

(٤) سورة الماعون : الآية ٤ ، والآية ٥ .

(٥) عبده (الأستاذ الإمام محمد) : تفسير سورة الفاتحة ص ٣٣ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

بل إن الإمام محمد عبده ليتندر من صاحب هذه الصلاة الأخيرة لأنه لم يقم بها كما طلبها الحق تعالى فى حضور وخشوع ؛ فهو – المصلى – يركع فى ذهول عن ركوعه ، ويسجد فى لهو عن سجوده ، وإنما هى –كما يقول– حركات تشبه الخطوات التى يخطوها فى الطريق ينقل قدمه من خطوه إلى أخرى ، ولا يلاحظ فى كل خطوة ذلك المقصد الذى قصده بمشيه (١) .

فإذا فقدت الصلاة إذاً معنى الحضور من جانب المصلى ، على هذا النحو الذى أشار إليه الإمام محمد عبده فقد دخل صاحبها فى زمرة الذين توعدهم الحق تعالى لغفلتهم فى صلاتهم إذ ليس هذا هو المراد حقيقة من الصلاة . ومن ثم فلم يكونوا مصلين لله حقيقة ، لأنهم لم يفطنوا إلى أمر الصلاة على الوجه الأتم ، ولذلك فإن وصفهم بالسهو عن الصلاة الحقيقة من حيث هى كما يقول الإمام محمد عبده – توجه القلب إلى الله تعالى المذكر بخشيته ، والمشعر للقلوب بعظيم سلطانه (٢) .

وهذا المعنى الأخير هو المراد الحقيقى من الصلاة ولذلك فقد قرنها الله تعالى دوما بالإقامة ولم يشر إليها بالأداء ، فقال تعالى "**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة**" (٣) إذ الإقامة بها هى لإحضار القلب هيبة المعبود ، وترويضه بالخشوع ، وإذا لم تكن الصلاة كذلك ، كانت مجرد حركات ظاهرة ، وحينئذ فليس ذلك من الصلاة فى شىء البتة (٤) .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٣٩ .
(٢) عبده (الأستاذ الإمام محمد) : تفسير سورة الفاتحة ص ٣٣ .
(٣) سورة البينة : الآية ٥ .
(٤) عبده (الأستاذ الإمام محمد) : تفسير سورة البينة ص ٢٠٤ – ٢٠٥ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ومثل هذه الصلاة التى فطن إلى دلالتها الصوفية ، كما فطن إليه أيضاً الإمام محمد عبده تكون الصلاة أفعالا ترفع إلى الله وليست مجرد حركات آلية لا روح فيها ولا حياة . وإذا صارت الصلاة بهذا المعنى الأخير ، فقدت بالتالى مغزاها وغايتها بوصفها عبادة من أجل العبادات . أما إذا كانت بالمعنى الأول – حضور القلب – فقد صارت حقا زينة للمصلى، لأن صلاته فى هذه الحالة عن حضور وخشوع وتقوى [١] . وحينئذ تكون هذه الصلاة هى أفضل لباس يتحلى به صاحبها لقوله تعالى : "وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ" [٢] فإنه لا تقوى فعلا أفضل من الصلاة [٣] .

فالمهم إذاً فى الصلاة هو الجوهر لا المظهر . وإنما يكون ذلك بإقامتها على نحو يحقق المراد منها ، وهو صدق التوجه والقصد إلى الله. ولن يكون ذلك إلا بحضور القلب وتقوى الجوارح ظاهرا وباطنا ، فإذا كان هذا هو شأن المصلى بين يدى المصلى له ، فقد أصبحت صلاته فعلا زينته لله تعالى .

وإذا كان الحق تعالى قد أمرنا بالتزين عند الذهاب إلى المسجد لقوله تعالى "يا بنى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ" [٤] فينبغى ألا يفهم من هذا ، أن الزينة هنا تتوقف عند حد الزينة الحسية التى تغطى ظاهر المصلى فقط ، بل المراد أيضا الزينة الباطنة التى تتمثل آثارها على

---

(١) ابن عربى : الفتوحات المكية – السفر السابع ص ١١٤ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٦ .

(٣) ابن عربى : الفتوحات المكية – السفر السابع ص ١١٤ .

(٤) سورة : الأعراف الآية : ٣١ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

كل جوارحه الباطنة . ولئن كان اللباس الحسن هو الزينة التي أمر الله بها ، فليس هناك أفضل للمصلى من زينته لله بالعبودية ، فإنه إن كان هكذا ، كان كله لله تعالى ، وكان الله معه في كل أحواله ، فتكون زينته لربه بالعبودية وزينته تعالى له بالمعية [١] .

وعلى هذا يمكن القول أن الصلاة كما تحقق لصاحبها أخلاق الصدق والتواضع والخشية والهيبة والأدب مع الحق والخلق ، فإنها أيضاً تشعره بمعنى العبودية لله ظاهرا وباطنا في كل لحظة من لحظاته ، وفي الشعور بالعبودية -في رأينا- يبطن معنى الحرية كذلك بالمعنى الروحي.

فالصلاة إذاً هي عبودية وحرية مما دونه تعالى في الآن نفسه مادامت هي في المقام الأول توجه الإنسان إلى الله وحده ، ونهوض قلبه وتفريغه عمن سواه ، وعلى هذا النحو تصبح الحرية هنا هي حرية القلب لاغير [٢] . أو هي بالمعنى الأصح امتلاء القلب كلية بالعبودية الكاملة لله، فإذا كان الإنسان عبدا لله وحدّه ، فلا شك أنه مما لا دونه حر [٣] . وبذلك يسمو الإنسان بكماله في عبادته لله من هذا الوجه لأن كمال المخلوق هو في تحقيق عبوديته لله تعالى وكلما ازداد تحقيقا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته [٤] .

وإحساس المصلى الدائم بهذه العبودية لله بهذا المفهوم الذوقي الذي قدمه الصوفية تحقيق للغاية الحقيقية من الصلاة بل وهو تمام المعرفة

---

(١) ابن عربي : الفتوحات المكية - السفر السابع ص ١١٥ ، وأيضا السفر الثامن ص ١٦٨ .
(٢) السلمي : طبقات الصوفية ص ٣٤٣ .
(٣) السلمي : المصدر السابق ص ١٥٨ .
(٤) ابن تيمية : العبودية ص ٣٤ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الحقيقية لله أيضاً ، وهذا هو القصد من خلق الإنسان بالذات بل ومن غيره من المخلوقات لقوله تعالى : "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ"(١) .

وكل الموجودات على اختلاف أجناسها وأنواعها على الحقيقة تقر لله بالعبودية بل إن من أدمن النظر رأى الوجود كله ظاهرا وباطنا مصليا لله تعالى (٢) لقوله تعالى "وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ" (٣) وقوله تعالى : "وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ" (٤) .

ومادام هذا هو شأن كل الموجودات ، من حيث هي مصلية لله بهذا المعنى – وهو الإقرار بالعبودية – فبالأحرى أن يفعل الإنسان بالذات في صلاته لله فعل كل هذه الموجودات التي لا تنفك عن الإقرار بهذه العبودية في تسبيحها وسجودها الدائمين لله تعالى ومن ثم فمن ترك الصلاة بهذا المفهوم بالذات ، فقد خالف الخليقة كلها ، وأخل بنظام العالم كله على حد قول الشعراني (٥) .

فإذا تحقق المصلي في صلاته بالعبودية الكاملة لله ، فقد حقق القصد الحقيقي من الصلاة بوصفها عبادة فرضها الحق تعالى عليه .

---

(١) سورة الذاريات الآية : ٥٦ .
(٢) الشعراني : أسرار أركان الإسلام ص ٤٤ .
(٣) سورة الإسراء الآية ٤٤ .
(٤) سورة الرعد الآية ١٥ .
(٥) الشعراني : أسرار أركان الإسلام ٤٧ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وفضلا عن ذلك ، فإن صلاته تثمر له مشاهدة ومكاشفة من الحق تعالى لأن المصلى متلبس بالحق تعالى فى صلاته كما يقول ابن عربى أو هو بالأحرى فى حضرة الحق تعالى بكليته مشاهد له ودائم المناجاة معه ، ومن ثم فقد حق له بصلاته هذه المكاشفة ، من حيثية جمعه فى صلاته بين هذه الأحوال الثلاثة من ناحية ولأن الحق تعالى هو النور من ناحية أخرى[١] .

ولا شك فى أن مثل هذه الحالة العرفانية المصاحبة للصلاة بوصفها عبادة ، لا تكون كذلك إلا إذا كملت بشروطها الظاهرة والباطنة معا . بل إن الشروط الباطنة فى الصلاة أمر ضرورى لحصول ثمرتها الأخيرة بالذات . ولأجل ذلك فإن تخليصها - الصلاة - من الآفات ، وإقامتها فعلا على وجه الإخلاص وصدق التوجه إلى الله ، مع الخشوع والتعظيم والحياء لله سبب لحصول أنوارها فى قلب المصلى . ومن ثم فليس غريبا أن يكاشف المصلى حقيقة - كما يقول الغزالى - بهذه الأنوار لاسيما فى حال سجوده مادام السجود بالذات هو أقرب ما يكون فيه المصلى حقيقة بين يدى الحق تعالى[٢] .

وبدهى أن ثمرة الصلاة بالمعنى الأخير - العرفانى - هو مما يتحقق للمؤمنين الكاملين فى إيمانهم الذين أقاموا الصلاة بخشوع وخضوع دائمين ، ولهذا فقد مدحهم الحق تعالى فقال : "قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ" [٣] .

---

(١) ابن عربى : الفتوحات المكية - السفر الثامن ص ١٦٩ .
(٢) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ ص ١٧٠ .
(٣) سورة المؤمنون الآية : ١ ، الآية ٢ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الأمر الذى يعنى أن مدح الله تعالى لهم سببه الخشوع فى الصلاة أصلا ، وليس بأداء الصلاة ذاتها . بل ليس هذا فقط ، وإنما علة مدحهم من الله كذلك هو المداومة على إقامتها قطعا بهذه الكيفية وفى كل أوقاتها بدليل قوله تعالى : "وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ" (١) .

فلما كان ذلك كذلك ، فقد حق لهم أن ينالوا ثمرة هذه الصلاة بسبب حرصهم التام على الخشوع فى الصلاة من ناحية ولحرصهم أيضا على إقامتها فى أوقاتها المعلومة كاملة أيضاً من ناحية أخرى ، ومن ثم فإن ثمرة هذا كله هو تحققهم بأنوار الحق تعالى ولأجل ذلك مدحهم الله بقوله : "أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" (٢) .

فظاهر من تلك النصوص القرآنية السابقة ، أن أمر الصلاة جسيم، وأن شانها عظيم ، بل ويتبين أيضاً أن الإتيان بها بغير هذه المعانى الباطنة أمر ميسور ، لكن إقامتها بالجمع بين شروطها الظاهرة والباطنة هو الأمر الصعب، وهو المطلوب . ومن ثم فقد حق للغزالى أن يقول فى شأنها ما لم تكن بهذه الكيفية " وما عندى أن هذرمة اللسان مع غفلة القلب تنتهى إلى هذا الحد ولذلك قال الله تعالى فى أضدادهم – المصلين بغير هذه الكيفية – "قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ" (٣) ، ولذلك فالمصلون هو ورثة الفردوس ، وهم كما يقول الغزالى المشاهدون لنور الله تعالى (٤) . ومن

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٩ .
(٢) سورة المؤمنون الآية ١٠ ، الآية ١١ .
(٣) سورة المدثر الآية ٤٣ .
(٤) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ١ ص ١٧١ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

أجل ذلك فليس غريبا أن يؤكد الهجويرى أيضاً أن الصلاة مشرب أهل الاستقامة [١] .

صفوة القول إذاً أن الصلاة بكل هذه المعانى السابقة مجتمعة تصبح فعلا اتصالا حقيقيا دائما بالله تعالى ، ليس بإقامتها فى أوقاتها المعلومة شرعا فحسب ، بل فى كل أحول المصلى مع الحق والخلق معا، مادامت الصلاة لا تنفك عن هذه المعانى الخلقية والروحية ولهذا السبب ، فإن من صلى بجسده وقام بأركانها كما أمره الحق ، وأنزلها بهذه المعانى فى كل ركن من أركانها ، وفهم بروحه وعقله تلك المعانى الباطنة فيها كما ينبغى فقد صلى بجسده وقلبه وروحه ، ومن لم تكن صلاته كذلك ، فقد دخل تحت مشيئة الله تعالى على حد قول الشعرانى [٢] .

الدلالات الروحية والخلقية للزكاة :

فإذا انتقلنا من الصلاة إلى الزكاة وجدنا الصوفية حريصين أيضا على التحقق بأداء هذه العبادة المشروعة ، وبنفس الكيفية التى يحرصون عليها فى غيرها من العبادات وعلى نحو يكشف عن نفاذهم إلى دلالتها الخلقية والروحية معا .

والزكاة عبادة مأمور بها ، فهى فريضة من فرائض الإسلام بعد الشهادتين شأنها شأن الصلاة والصيام وحج البيت وهى مفروضة على الشخص الذى تجب عليه ولا وجه للإعراض عنها [٣] ودليل فرضيتها

---

(١) الهجويرى : كشف المحجوب جـ٢ ص ٥٤٤ .
(٢) الشعرانى : أسرار أركان الإسلام ص ٤٧ .
(٣) الشعرانى : أسرار أركان الإسلام ص ٤٧ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

قوله تعالى "وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة" [١] ، وقوله تعالى "والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم" [٢] ، وقوله تعالى : "خذ من أموالهم صدقه تطهرهم وتزكيهم بها" [٣] ، وحدد الحق تعالى من تجب لهم الزكاة والصدقات فقال تعالى : "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" [٤] . وهى أيضا من خصال المؤمنين المتقين لقوله تعالى : "الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ" [٥] . ولأن الزكاة مأمور بها فقد توعد الله الذين يقصرون عن إخراجها بدليل قوله : "وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ"[٦].

وإذا كانت الزكاة هى تمليك جزء مخصوص من مال مخصوص لشخص مخصوص بشروط مخصوصة لله تعالى [٧] فإن الصوفية لم يقفوا عند معناها الظاهر ، وإنما جمعوا إلى جانبه معناها الباطن ، ليتحقق لهم

---

(١) الهجويرى : كشف المحجوب جـ٢ ص ٥٥٧ .
(٢) سورة البقرة : الآية ٤٣ .
(٣) سورة التوبة : الآية ١٠٣ .
(٤) سورة التوبة : الآية ٦٠ .
(٥) سورة لقمان : الآية ٤ .
(٦) سورة التوبة : الآية ٣٤ .
(٧) جاب الله (الدكتور محمد عبدالمقصود) أحكام العبادات دراسة شاملة لمذاهب الفقهاء ، مطبعة دار الكتب الجامعية الحديثة - طنطا - ١٩٨٦ ص ٢٢٨- وللزكاة تعريفات كثيرة ، ولكن يجمعها كلها أن الزكاة اسم للمال المخصوص وهو القدر الواجب إخراجه من مال مخصوص ، وهو المال النامى سواء كان من الذهب والفضة أو عروض التجارة والطائفة المخصوص لهم إخراجها هم مصاريف الزكاة المذكورة فى القرآن الكريم .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الكمال فى هذه الفريضة فى الجمع بين الظاهر والباطن معا . فإذا كانت الزكاة شرعا أو بمفهومها الظاهر اسم لأخذ شيء مخصوص من مال مخصوص على أوصاف مخصوصة لطائفة مخصوصة ، فإن الزكاة بمفهومها الباطن هى أداء شكر النعمة من جنس النعمة . وإذا كانت الزكاة بمعناها الأول – الظاهر – ذات قدر معلوم من المال إذا بلغ حداً من الزيادة ، فإن الزكاة بمعناها الآخر – الباطن – لا حد لها على الإطلاق لأن نعمة الحق تعالى على عبده لا حد لها ، ومن هذا الوجه فإنه يتعين عليه الزكاة لهذه النعمة التى لا حد لها لقوله تعالى : "وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ(١) .

وإذا كانت دائرة الزكاة بالمعنى الشرعى تتعلق فقط بإخراج حق الفقراء والمحرومين من المال بالقدر الذى حدده الشرع فى مصارفها ، فإن الزكاة بمعناها الذوقى عند الصوفية تتسع لتكون زكاة للبدن وللقلب بل ولله كذلك .

ولكن أول ما ينبغى على العبد فى شأن الزكاة هو أن يعلم الحكمة أصلا من أدائها من حيث هى إخراج نصيب من ماله للفقراء والمحرومين، لأن الله جعل لهم حقوقا فى أموال الأغنياء هى مفروضة عليهم ، ليس لأصحاب الأموال فيها شيء ، لأن المال فى حقيقته مال الله، ولو كان مال الزكاة ملكا لصاحبه لما وقع الوعيد لمانعها (٢) لقوله تعالى :

---

(١) سورة النحل الآية ٥٣ .
(٢) الشعرانى : أسرار أركان الإسلام ص ٤٨ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

"وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ" (١) .

فالزكاة إذاً هى حق الله على بعده ، لأن كل ما يحصل عليه هو من نعمه لقوله تعالى " أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ، أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ"(٢) "أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ، أَأَنْتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ"(٣) " وقوله تعالى : "وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا"(٤) وقوله تعالى : "أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ" (٥) وقوله تعالى " وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه " (٦) ومادام كذلك فقد حق على الغنى أن يخرج الزكاة المستحقة عليه لمن حددهم الله لها من الفقراء والمحرومين وغيرهم كما حددته آيات الكتاب الكريم .

وفضلا عن هذا ، فالزكاة أيضا حق للفقير على الغنى ، لأن حكمة الله تعالى فى خلقه قد اقتضت ولا يسأل عما خلق أن يكون فى خلقه الأغنياء والفقراء معا ، لأن الله لو كان قد خلقهم كلهم أغنياء لبطل نظام الوجود ، وكذلك لو خلقهم كلهم فقراء لقوله تعالى : "وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ

---

(١) سورة التوبة : الآية ٣٤ .
(٢) سورة الواقعة : الآيتان ٦٣ ، ٦٤ .
(٣) سورة الواقعة : الآيتان ٦٨ ، ٦٩ .
(٤) سورة الجاثية : الآية ١٣ .
(٥) سورة البقرة : الآية ٢٥٤ .
(٦) سورة الحديد : الآية ٧ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا"[١] ولما كان ذلك كذلك ، فقد لزم إعطاء الغنى حق الفقير ، مادام الله قد أوجب عليه أن ينفق من ماله على من أفقره ، وبذلك يتحقق التكافل بين أفراد المجتمع الإنسانى . [٢]

وإذا تأملنا الزكاة بهذا المعنى ، نعنى من حيث هى حق للفقير وحق لله أيضا ، ألفيناها طهارة لصاحبها وهى إذا كانت كذلك ، فإن منعها هو من أعظم درجات البخل والشح ، ولهذا فمن لم يؤد الزكاة فقد أحب ماله حتى مال به المال واستغرقته محبته له فصار ذليلا لما أحبه ، ومن ثم فقد لزمته عبوديته [٣] . وليس الأمر كذلك لمن أدى الزكاة لمستحقيها ، لأن أداءها لهم هو أقل درجات السخاء وفى ذلك تشبه بأخلاق الله من الجود والسخاء [٤] . وبذلك تحقق الزكاة لصاحبها التطهر من أوصاف الشح والبخل ، بدليل قوله تعالى: "خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا" [٥] .

ولما كانت الزكاة فى حقيقتها أداء شكر النعمة من جنسها ، فقد حق على العبد أن يؤدى زكاة على كل ما أنعم به عليه ، ومن هنا فقد صار للبدن وأعضائه زكاة . وإنما تحصل زكاة البدن بأن يصرفه صاحبه

---

(١) سورة الزخرف : الآية ٣٢ .

(٢) الشعرانى : أسرار أركان الإسلام ص ٤٨ .

(٣) الشعرانى : أسرار أركان الإسلام ص ٥٠ .

(٤) الشعرانى : المصدر السابق ص ٥٣ .

(٥) سورة التوبة الآية ١٠٣ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

فيما أمر ، الله به ، وبأن يحفظ العبد جوارحه بحيث تكون مستغرقة فـــى خدمة الله وطاعته ومشغولة بعبادته ، وبحيـث لا تميـل إلـى اللهـو أو اللعـب ، فإذا كانت كذلك فقد حقق صاحبها زكاتها أو طهارتها [١] .

فليس المهم إذاً أداء حق الزكاة سواء كانت زكاة للمـال أو زكـاة للبدن وجوارحه وإنما الأهم منه التأدب فى إتيانها وإخلاص القصـد فـى القيام بها لوجه الله تعالى وحده ، ومن ثم فقد لزم أن يتأدب العبد بقدر من الآداب الباطنة ليتسنى له الإتيان بهذه الفريضة ظاهرا وباطنا .

ويفصل الغزالى[٢] هذه الآداب الباطنة فيجعلها ثمانية . الأولـى ، أن يفهم صاحب الزكاة وجوبها ولم كانت كذلك مع أنها فى الأصل تصرف مالى وليست من عبادة الأبدان وإذا فهم صاحبها – الزكاة – فـإن ذلـك يفضى به إلى معرفة أمور ثلاثة الأول أن التلفظ بالشهادتين هـو إلـزام للتوحيد وشهادة بإفراد المعبود . وهذا يوجب عليه تمام الوفاء والقيام بـه، وإنما يحصل هذا الأمر ، بأن لا يبقى فى قلبه سوى الواحد ، إذ المحبة فى أصلها لا تقبل الشركة ، والتوحيد باللسان قليل الجدوى . ومن ثم فالتوحيد بهذا المعنى الذوقى هو نفسه تطهر ، وذلك تحقيق أيضاً للزكاة بوصفهـا طهارة . وأما المعنى الثانى فلا يخرج أيضاً عن التطهير مـن البخـل ، بوصفه صفة مذمومة لقوله تعالى : "وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُـمُ الْمُفْلِحُونَ" [٣]. وأما المعنى الثالث – والأخير – فهو شكر النعمـة لان لله على عبدة نعمة فى نفسه ونعمة فى مالى [٤] .

---

(١) الهجويرى : كشف المحجوب جـ٢ ص ٥٥٧ .
(٢) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ١ ، ص ٢١٤ – ٢١٥ .
(٣) سورة الحشر : الآية ٩ .
(٤) الغزالى : المصدر نفسه جـ١ ص ٢١٦ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

أما الثانية فإنما تتجلى فى وقت أدائها ، ومن الأدب فى الديـــن أن يعجل المرء بها عن وقت وجوبها ، وفى هذا إظهار للرغبة فى الامتثـــال لأمر الله وفى إيصال السرور إلى قلوب الفقراء ومبادرة لعوائق الزمان أن تعوقه عن فعل الخيرات [١] . والثالثة هى الإسرار بها ، لأن فى تحقيقهـــا بهذه الكيفية ابتعاد بها عن الرياء والسمعة والعجب [٢] . وبهذا يتحقق لـــه الإخلاص فى العمل لغيبته عن الاهتمام برؤية الناس له أو الشهرة بينهم ، لأن الإخلاص فى أصله تصفية الفعل عن ملاحظ المخلوقين ، والرابعة أن يظهر حيث يعلم أن فى إظهارها ترغيبا للناس فى الإقتداء ، ويحرس سره فى ذات الوقت من داعية الرياء . وذلك حيث يقتضيه الإبداء إما للإقتداء ، وأما لأن السائل إنما سأل على ملأ من الناس ومن ثم فلا ينبغى أن يـــترك التصدق عليه خيفة من الرياء فى الإظهار ، بل الأولى أن يعطـــى لكـــى يفتضح أمره ، وبشرط أن يتصدق المرء ويحفظ سره عن الرياء [٣] لقوله تعالى : "وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً" [٤] والخامسة ، فهـــى لا يفسد صاحب الزكاة صدقته بالمن والأذى [٥] لقوله تعـــالى " ولا تبطلـــوا صدقاتكم بالمن والأذى . والسادسة أن يستصغر العبد العطية ، لأنـــه إن استعظمها فقد اعجب بها ، والعجب من المهلكات ، وهو بالتـــالى محبـــط للأعمال .

---

(١) القشيرى الرسالة القشيرية تحقيق عبدالحليم محمود ، محمود بن الشـــريف – دار الكتب الحديثة القاهرة ١٩٧٤جـــ٢ ص ٤٤٣ .

(٢) الغزالى : إحياء علوم الدين جـــ١ ص ٢١٧ .

(٣) الغزالى : إحياء علوم الدين جـــ١ ص ٢١٧ .

(٤) سورة فاطر : الآية ٢٩ .

(٥) الغزالى : إحياء علوم الدين جـــ١ ص ٢١٧ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

والسابعة أن ينتقى المرء من ماله أجوده وأحبه إليه ، وأجله وأطيبه ، لأن الحق تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا ، فإذا كان المخرج من شبهة ، فربما لا يكون مالكا له مطلقا ، وإذا لم يخرج أيضاً من جيد المال فهو من سوء الأدب ، وهذا الأخير غير ما أمر الله تعالى به لقوله تعالى : "يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ"(١) . والثامنه أن يطلب لصدقته من تزكوا به الصدقة ولا يكتفى بأن يكون من عموم الأصناف الثمانية فإن فى عمومهم خصوص صفات فليراع خصوص تلك الصفات(٢) .

الدلالات الروحية والخلقية للصوم :

والصوم عند الصوفية لا ينفك أيضاً عن هذه الدلالات الخلقية والروحية شأنه شأن الصلاة والزكاة . ولهذا فقد اجتهد الصوفية على أن يحققوه على الوجه الأتم بوصفه عبادة مأمور بها لقوله تعالى : "يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"(٣) ، وقوله تعالى : "شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنْ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ"(٤) هذا فضلا عما اختصه به – الصوم – الجناب الإلهى

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٦٧

(٢) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ١ ص ٢١٩ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٨٣ .

(٤) سورة البقرة : الآية ١٨٥ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

لما نسبه إليه كما دل عليه هذا الحديث القدسى كل عمل ابـــن آدم لـــه إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به . فإن سأل سائل لم اختص الله الصوم مـــن بين العبادات جميعها بهذه الخصوصية بالذات ؟ فالجواب عن هذا يأتى من جهتين :

أولاهما : أن جميع المفترضات على الجوارح يتهيـــأ للخلـق أن ينظروا إليه إلا الصوم ، فهو عبادة بغير حركة الجوارح [١] . ومن ثم كان بهذه الخصوصية الأولى عبادة سرية لا تتعلق بالظاهر فقط ، ولهذا قـــال تعالى الصوم لى [٢] .

وثانيتهما : أن قوله تعالى لى ، يرتد إلى الصمدية ، والصمد هو الذى لا جوف له فلا يحتاج بالتالى إلى الطعام والشراب [٣] ولأجل هـــذا كان الصوم صفة صمدانية لأن حقيقة الحق ، تستلزم التنزه عن التغـــذى، وحقيقة المخلوق تقتضى التغذى الأمر الذى يعنى أنه لما كانت للصوم هذه الصفة ، فقد نسبه الحق تعالى إليه ، لأن ذاته تعالى لا يجوز عليهـــا مـــا يجوز على الخلق ومنها صفة التغذى [٤] .

ولما كان للصوم هذه الخصوصية ، فإن جزاء الصـــائمين بغـــير نهاية لقوله تعالى "إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ" [٥] ومن ثم فقد خرج الصوم من عداد الحسنات المعدودة ثوابها ، لأنه صبر النفس

---

(١) الطوسى : اللمع ص ٢١٦ .
(٢) الهجويرى : كشف المحجوب جـــ٢ ص ٥٦٤ .
(٣) الطوسى : اللمع ص ٢١٦ - ٢١٧ .
(٤) ابن عربى : الفتوحات المكية جـــ١ ص ٢٥٨ .
(٥) سورة الزمر : الآية ١٠ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

عن مألوفاتها من المأكول والمشروب ، وإمساك أيضـــا للجـوارح عـن شهواتها ، ولهذا السبب فالصائمون من هذه الجهة هم الصابرون [١] .

فعله الزيادة فى ثواب الصائمين دون غيره من العبادات ، ترتد إذاً إلى خصوصيته بوصفة صفة من أوصاف الذات العلية . ومن هذه الجهـة كان الصوم من أصعب الأشياء على النفوس ، لأنه خلاف ما جبلت عليه ، من حيث إن قوامها لا ينفك عن المادة ، وليس الأمر كذلك بالنسبة للحـق تعالى ، فهو الغنى عن كل شىء ، ومن أجل هذا رغب الحق تعالى فـى الصيام لما فيه من التشبه به فى صفة الصمدانية [٢] ومن أجل هذا فالكمال فى هذه العبادة ، إنما يجىء من حيثية أنه عبادة يراد بها التشبه باللـــه أو بالأحرى الاتصاف بأوصافه والتعبد بها على قدر الطاقة الإنسانية [٣] .

والصوم شرعا هو الإمساك عن المأكول والمشروب والشـــهوة .. لكن الاقتصار على هذا الصوم تجريد لحقيقة الصوم بوصفه عبادة جامعة للجوارح الظاهرة والباطنة معا ، من حيث إن الحكمة فى الصوم أصـــلا هى كف الجوارح الظاهرة والباطنة عن المنهيات الموجبة للعذاب فى الدار الآخرة [٤] .

فالمراد بالصوم إذاً ليس هو الإمساك عن مطالب الجسد فقـــط أن ذلك هو صوم الظاهر ولكن لابد معه من صوم الباطن ، ولأجل هذا لابـد من تحقيقه بالوجهين معا ، وبحيث يكون الصوم ضبطا للظاهر والبـــاطن

---

(١) الطوسى : اللمع ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٢) ابن عجيبه : الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية ص ٢٧ .

(٣) الشعرانى أسرار أركان الإسلام ص ٥٦ .

(٤) الشعرانى : نفس المصدر ، ص ٥٥ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

معا . وكما أن الأول-الظاهر - يحصل بكف الجسد وإمساكه عن الطعام، فكذلك يكون الثانى - الباطن - بكف الجوارح عن الآثام [١].

وإذا كان الصوم المشروع هو الإمساك عن المأكول والمشروب والمنكوح ، بوصف هذه الأشياء مجتمعة هى مطالب الجسد ، فإن صوم الجوارح عن الآثام الظاهرة والباطنة ، لا يقل فى أهميته ولا خطره عن صوم الجسد كذلك .

ويتحقق صوم الجوارح عن تلك الآثام الظاهرة والباطنة حين يحفظ العبد لكل جارحة من هذه الجوارح وظيفتها التي من أجلها خلقت له هذه الجوارح من قبل الحق تعالى فى طاعته والتخلق بأوصافه ومن هذه الجهة فصوم العين فى أن يحفظها صاحبها من أن تنظر إلى الحرام والشهوة، وصوم الأذن أن يحفظها الإنسان من الاستماع إلى اللهو والغيبة ، وصوم اللسان أن يمنعه صاحبه من التلفظ باللغو والآفة فى القول ، وصوم الجسد أيضا أن يمنعه صاحبه من متابعة الدنيا بكليتها وإذا ما كانت كل هذه الجوارح مؤدية لمثل هذا الصوم ، فهو الصوم الحقيقى [٢] .

وعله الأمر فى هذا أن تحقيق صوم الجوارح على هذا النحو إنما هو فى أن تؤدى وظيفتها فى حدود ما شرعه الله تعالى . وما لم يتحقق الصائم بصومه بهذه الصفة ، افتقد لجوهر الصوم ، وإلا لما قال عليه السلام إذا صام أحدكم فلا يرفث ولا يفسق ، فإن شتمه إنسان فليقل إنى صائم .

---

(١) الهسروردى البغدادى : عوارف المعارف ص ٣٣٥ .

(٢) الهجويرى : كشف المحجوب جـ٢ ص ٥٦٥ وأيضا انظر ما أورده الغزالى فى الإحياء جـ١ ص ٢٣٧ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ولا يقتصر أمر الصوم على هذه الدلالات الخلقية بوصفه كبحا لجماح الشهوات ظاهرا وباطنا ، ومن حيث هو أيضاً حفظ لحقوق الحق تعالى من ناحية ولحقوق الخلق عليه من ناحية أخرى . وإنما للصوم أيضاً دلالته الروحية العميقة ، والتى تجعله عبادة من أجل العبادات . ففى إمساك النفس عن المأكول والمشروب وضروب الشهوة ، عون لها فى التحرر من هذه الشهوات ، ولو لم يكن الإنسان واعيا بالقصد من هذه الحقيقة بالذات لاسترقته الأشياء ، واستعبدته تماما ولهذا فرض الله الصوم كسرا للشهوات وقطعا لأسباب الاسترقاق على حد قول الشعرانى [١].

وحين يصبح الصوم فى جوهره بهذا المعنى الخير بالذات فإنه يحقق لصاحبه التحرر من عبودية الأشياء المادية ، سواء كانت من جنس المأكول أو المشروب أو بخلاف الاثنين معا . وبهذا المفهوم الذوقى يتحقق الصائم فعلا بالحرية ويحقق الغاية التى خلق من أجلها ، لأن الأصل أن يكون مالكا للأشياء فى أصل خلقته ، لا أن تكون الأشياء مالكة له ، لأنه خليفة الله فى ملكه [٢] .

وإذا كانت جل هذه المعانى مجتمعة ضرورة لابد وأن يعيها الصائم ، ليتحقق بالقصد الحقيقى من الصوم كعبادة ، فليس غريبا أن يتفاوت الخلق فى الصوم فلكل مقام معلوم ، يتحدد بما يحققه من مضامين تلك العبادة ، كما يحققه أيضاً بقدر إيمانه وتقواه . ومن ثم فللصائمين -كما يقول الغزالى - مراتب أو درجات ثلاث ، فصوم العموم يراد به كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة ، وصوم الخصوص هو كف السمع

---

(١) الشعرانى : أسرار أركان الإسلام ص ٥٦ .

(٢) الشعرانى : نفس المصدر ، ص ٥٦-٥٧ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام ، وصوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية وكف القلب عما سوى الله عز وجل بالكلية [١] .

والأمر اللافت للنظر فى قسمة الصائمين على هذا النحو عند الغزالى يرتد إلى الكمال فيه ظاهرا وباطنا ، لأن الكمال فيه هو أن يفهم الإنسان معناه أو بالأحرى حقيقته من حيث إن مقصوده تصفية القلب وتفريغه -الصوم- لله عز وجل وحده [٢] . وعلى ضوء هذا الفهم ، أو الوعى بحقيقة الصوم كان التفاوت بين الناس فى الإتيان به كاملا ، أعنى من الجانبين معا الظاهر والباطن وهذا هو ما يكشف عنه تقسيم الغزالى لأن المرتبة الأولى هى مرتبة أغلب الناس أولئك الذين يقفون بصومهم عند حد معناه فى الشرع بوصفة إمساكا عن شهوة البطن والفرج معا ، دون كف لجوارحهم عن الوقوع فى الآفات الظاهرة والباطنة أما المرتبة الثانية ، فأعلى درجة من سابقتها ، لأن أصحابها قد صامت جوارحهم عن الآثام والآفات ظاهرا وباطنا ، جنبا إلى جنب إمساكهم عن شهوة البطن والفرج ، وبذلك أصبحت جوارحهم مؤدية لحقوق نعمة الحق عليهم من ناحية ولحقوق الخلق عليهم من ناحية أخرى . أما المرتبة الثالثة ، وهى أعلى المراتب فهى مرتبة الكاملين الذين حققوا بصومهم الغاية منه وهى مرتبة الأنبياء والصديقين والمقربين الذين صاموا بقلوبهم وجوارحهم عن كل ما سوى الله ، أو بالمعنى الأدق فقد صار الصوم فى حقهم هو

---

(١) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ١ ص ٢٣٥ .

(٢) الغزالى : نفس المصدر جـ١ ص ٢٣٩ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الإمساك عن كل ما سوى الله حقيقة [١] . ومن الجلى أن هذا هو القصد الحقيقى من العبادة الحقة والمعرفة التامة بالحق تعالى .

الدلالات الروحية والخلقية للحج :

وفريضة الحج من أهم الفرائض التعبدية التى فرضها الحق تعالى على كل مسلم إذا ما تحققت له شروط القيام بها فهو فرض عين على العبد فى حال صحة العقل والبلوغ والإسلام وحصول الاستطاعة [٢] . ولهذا احتلت هذه الفريضة مكانة ممتازة لدى الصوفية ، فحرصوا ليس فقط على الاهتمام بأدائها متى توفرت لهم شروط الاستطاعة بل وعلى تذوق المعنى المقصود من أركانها ما كان منه من المفروضات وما كان من المسنونات.

وإذا كانت الصلاة قد تعددت مضامينها الخلقية الروحية عند الصوفية لتعدد أعمالها من الأفعال والأقوال ، فإن فريضة الحج هى الأخرى لا تقل عنها من هذه الحيثية بالذات .

وربما كان اهتمام الصوفية بالوقوف عند دلالات شعائر الحج بالذات سببه ارتباطه الوثيق بتوكيد التوحيد الخالص لله ، بوصفه خصيصة لعقيدة الإسلام . ومن ثم فقوله تعالى : "وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً" [٣] راجع لما فيه – الحج – من غوامض التوحيد ، وضرورة الاستهلاك التام فى تحقيقه ، حتى لا يبقى لصاحبه سوى

---

(١) ابن علوية : المنح القدوسية ص ٦٤ .

(٢) الهجويرى : كشف المحجوب جـ٢ ص ٥٧٦ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٩٧ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

محبوبه ، وهذا هو المقصود من الحج [١] . ولهذا كان ضروريا أن يقف الصوفية عن معانى الحج الباطنة فى كل شعائره ، إذ ليس لهم مطلوب ولا مقصود غير الله تعالى وحده [٢] .

فإذا أردنا أن نكشف عن حقيقة هذه الفريضة – الحج – ومكانتها عند الصوفية فان أول ما يطالعنا عندهم هو التأكيد على ضرورة القيام بها حال تحقق شروطها فى العبد . ولهذا فليس غريبا أن يقول الطوسى أن أول آدابهم الاهتمام بحجة الإسلام والتوجه إليه بأى وجه يجد السبيل إليه والاستطاعة ، وبحيث لا يركن العبد إلى سعة وطلب الرخصة فى الجلوس بإعدام الزاد والراحلة ، إلا أن يقعده عن ذلك فرض لازم [٣] .

وللحج شروطه وأركانه التى لا بد من استيفائها ، وقبل هذا من العلم والإحاطة بها ، لأن العبادة لا يمكن القيام بها على الوجه المشروع الذى حدده الشرع إلا بالفقه فى أحكامها ، ومن ثم فأول الحج فهم موقعه فى الدين [٤] .

لكن الوقوف عند حد إقامة شعائر الحج ، من حيث هى عمل البدن وجوارحه الظاهرة ليس وحده شغل الصوفية . صحيح أن الإتيان به مطلوب . لكن الوقوف عند حده الظاهر دون النفاذ إلى باطنه هو المقصود . إذ القصد الحقيقى من كل العبادات ، هو تحقق القلب لا

---

(١) ابن علوية : المنح القدوسية ص ٦٤ – ٦٥ .

(٢) الطوسى : اللمع ص ٢٩ .

(٣) الطوسى : اللمع ص ٢٢٢ .

(٤) الغزالى : أحياء علوم الدين جـ١ ص ٢٦٧ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

القالب بدقائقها المقصودة جنباً إلى جنب رسومها المعلومة . وهذا ما تحده حقيقة الإيمان ، من حيث هو أعلى من مجرد الإسلام ، إذ الإيمان ظـــاهر وباطن ، وظاهره قول باللسان وعمل بالجوارح ، وباطنه تصديق القلـــب وانقياد ومحبته لله[1] .

وإذا كان ذلك كذلك ، فليس المراد إذاً عند الصوفية هـــو القيـام بشعائر الحج على نحو ما أمر به الشرع فحسب ، بل نفاذ القلب وتحققـــه بكل ما يفعله البدن وجوارحه الظاهرة من أفعاله المفروضـــة والمسـنونة معاً.

ولهذا السبب لم يخل الحج عند الصوفية من تنوع دلالاته الروحية والخلقية منذ بدء رحلة السفر لأداء هذه الفريضة . فينبغي على العبـــد أن يعي حقيقته من حيث هو سفر إلى الله بقلبه لا بقالبه فقـــط منـــذ لحظـــة الخروج من البلد الذى يقيم فيه . فهو ليس متوجهاً إلـــى موضـــع البيـــت الحرام ، وإنما إلى رب البيت أصلاً والسفر الأخير –هـــو ســفر القلـــب والباطن ، والأول هو سفر البدن وجوارحه أو سفر الظـــاهر ومن ثم فلابد أن يعلم العبد فى سفره أنه لا يضاهى أسفار الدنيا حقيقة ، ولن يكون هـــذا إلا بأن يحضر قلبه منذ البداية فيه ، وأنه توجه إلى ملك الملوك[2] .

فإذا بدأ العبد رحلة السفر ، فعليه أن يفطن إلى كل ما يفعله منـــذ اللحظة التى يصل فيها إلى المكان الذى يحرم فيه ، وهو الميقـــات الـــذى

---

(١) ابن القيم : الفوائد –المكتبة القيمية– القاهرة ، الطبعة الأولى –١٤٠٠هـــ ، ص١٤٧ .

(٢) الغزالى : إحياء علوم الدين جـــ١ ص٢٦٥ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

حدد الشرع ليحرم منه أهل جهة معينة . فإذا بلغ العبد هذا المكان فلابد من التطهر والغسل للإحرام . ولكن الغسل هنا لا يكون للأبدان وحدها بالماء ، بل لابد معه من غسل القلوب بالتوبة[١] .

وإذا كان الأول ضرورة للإحرام وطهارة الجوارح الظاهرة ، فإن الكمال هو طهارة الجوارح الباطنة ، من أوساخ العلل الملوثة لها في دار الدنيا وصولا إلى مطهر السر ، وهو الحق تعالى ، المقصود والمطلوب أصلا [٢] .

وليس يكفى أن يتحقق العبد بالتطهر من الأوساخ الباطنية مع الأوساخ الظاهرة فى غسل الإحرام ، بل وإنما لابد أيضا من تطهر وتجرد له عن كل الصفات المذمومة والأخلاق الدنيئة . وتلك بدورها أخلاقية يفطن الصوفية إليها . ويحرصون عليها فى التزى بزى الإحرام ، فإذا تجردوا من لبس المخيط ، فلابد لهم كذلك من التجرد أو التحرر من كل ما يشغلهم كلية عن السير إلى الله بوصفة المقصود [٣] .

إن التجرد من لبس المخيط هنا هو التجرد الظاهر ، صحيح أنه مطلوب ولكن لابد معه باطن مقصود ، ومن ثم فإذا نزع العبد عن بدنه لبس المخيط فيلزمه أن ينزع من سريرته الغل والحسد ، وأن يخلى قلبه عن محبه الهوى والدنيا وبحيث لا يترك له ذلك بقية فى قلبه ، بحيث لا يعود بعد ذلك إليه [٤] .

---

(١) الطوسى : اللمع ص ٢٢٨ .
(٢) الشعرانى : أسرار أركان الإسلام ص ٦٣ .
(٣) الشعرانى : المصدر السابق ، ص ٦٣ .
(٤) المهينى : أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد – تحقيق الدكتورة إسعاد قنديل – مراجعة الدكتور يحيى الخشاب – الدار المصرية للتأليف والترجمة – القاهرة – بدون تاريخ ص ٣١٩ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

والتلبية لا تكون بمجرد النطق بها باللسان وحده ، وإنما باللسان والقلب معا . فليس يكفى أن يقول العبد فيها لبيك اللهم لبيك لا شريك لك . فأنها لو كانت كذلك دون أن يقع أثرها فى القلب ، لانتفى القصد من هذا النداء ومن ثم فإذا قاموا – الصوفية – إلى مثل هذه التلبية ، فإنهم يحرصون على أن تكون بجوارهم الظاهرة والباطنة معا ، لأن العمل على حقيقته يعكس صورة القلب لا اللسان [١] .

من أجل ذلك إذا حققوا هذه التلبية بألسنتهم ، فقد ألزموا أنفسهم ألا يجيبوا بعدها لدواعى النفس والشيطان والهوى ، لأن مجرد متابعة هذه العلائق يخالف ما أقروا به من قبل فى حال التلبية ، وأقروا فيه لله تعالى بالألوهية ، وأنه لا معبود لهم سواه [٢] . وفى هذا إفراد لله بالعبودية ، ولا يكون هذا إلا بكمال الإيمان ، فإن منازله توجب أن يعم جميع أعمال العبد بأعضائه الظاهرة والباطنة [٣] .

ولا عجب بعد ذلك كله ، حين نجدهم يؤكدون على هذه المضامين الروحية والخلقية والتى ينبغى أن تكون فيضا لهم من تلك الفريضة فى كل أحوالهم مع الحق والخلق معا . ومن ثم فقد حق لأحدهم أن يقول "عجبت ممن يقطع البوادى والقفار والمفاوز حتى يصل إلى بيته وحرمه لأن فيه آثار مولاه ، كيف لا يقطع نفسه وهواه حتى يصل إلى قلبه أن فيه آثار مولاه!! .

---

(١) الطوسى : اللمع ص ٢٢٨ .

(٢) النابلسى (عبد الغنى) حقائق الإسلام وأسراره – تحقيق عبدالقادر عطا دار التراث العربى – القاهرة – الطبعة الأولى ١٩٨٦م ص ١٩٤ .

(٣) السلمى : طبقات الصوفية ص ٢١٤ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

والطواف حول البيت – وهو ركن من أركان الحج – لا يكفى فيه أن يكون بالجسد وما يشمله من الجوارح الظاهرة . وإنما الكمال أن يكون بالبدن والقلب معا . بل إن اللحظة التى ينهضون منها إلى تحقيق هذا الطواف لا تنفك عن هذا المعنى الذوقى ، فكما ينظرون إلى البيت بأعين رؤوسهم ، ينظرون كذلك بأعين قلوبهم إلى من دعاهم إلى هذا البيت ، وهم إذا طافوا حول البيت بأبدانهم يجتهدون فى الوقت نفسه الطواف بقلوبهم (١) .

فالطواف إذاً ليس عملا آليا ينهض به البدن شانه بقية الأفعال التى هى من شعائر الحج ، والتى قد نجهل تماماً الحكمة من القيام بها ، من حيث أن العبادات ورسومها أمور توقيفية ، ولكنه – الطواف – عمل من أعمال القلب ، أو هو بالأحرى لابد أن يكون كذلك جنبا إلى جنب أنه عمل من أعمال البدن أو الجسد .

ولما كان الطواف ينبغى أن يكون عملا قلبيا فقد صار عند الصوفية ، أشبه ما يكون بالصلاة ، أو هو ضرب من الصلاة من حيث هو حضور القلب مع الله ولابد من ذلك (٢) .

وكما يلزم الحضور والخشوع بالقلب مع الجوارح لتؤتى الصلاة أكلها ، فكذلك يلزم حضور القلب فى الطواف ، مادام الصلاة ، ومن أجل ذلك لابد فيه أيضا من التعظيم والخوف والرجاء والمحبة فإذا كان الطواف

---

(١) الطوسى : اللمع ص ٢٢٨ .

(٢) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ١ ص ٢٧٠ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

بهذا المفهوم الذوقى القلبى فحينئذ هو الطـــواف المقصـــود لأن الطـــواف الشريف هو الطواف بحضرة الربوبية على حد قول الغزالى [١].

ومن هذا نتبين حرص الصوفية على التحقق بهذا المفهوم الذوقـــى فى طوافهم ولم لا وهم الذين نذروا أنفسهم بكليتها لله تعالى وحده ، ومـــن ثم فليس غريبا أن يقول واحد منهم :

لســـت مـــن المحبيـــن إن لـــم أجعـــل القلـــب بيتـــه والمقامـــا
وطوافى أخاله الســـير فيـــه وهو ركنى إذا أردت استلاما [٢]

فإذا جاء وقت السعى بين الصفا والمروة ، لم يتوقفوا فى ســـعيهم عند سعى الأبدان والأقدام ، وإنما جمعوا إليه سعى القلب والأرواح ، وإذا كان الأول عمل الظاهر الذى لابد منه ، فإن عمل الباطن لا يقـــل عنـــه . ومن ثم فقد حق عليهم من سعى يحققون به صفاء القلوب من الكـــدورات البشرية والآفات الإنسانية [٣] . بل إن أدب السعى الأخير ، يقتضى منهـــم أن يسرعوا فى مشيهم وقصدهم ، امتثالاً منهم ورغبة للفرار من عدوهم ، وهروبا من متابعة نفوسهم وهواهم وشيطانهم [٤] .

وفضلا عن هذا ، فإن أدب السعى بين الصفا والمروة ، يلزمهم أن يستحضروا بقلوبهم مشهدهم يوم الحساب ، وضرورة السعى بهمـــة فـــى

---

(١) الغزالى : نفس المصدر جـــ١ ص ٢٧٠ .

(٢) الطوسى : اللمع ص ٤٤٣ .

(٣) القشيرى : لطائف الإشارات – تحقيق الدكتور إبراهيـــم بســـيونى – الهيئـــة العامة للكتاب – القاهرة الطبعة الثانية ١٩٨١ المجلد الأول ص ٢٦٤ .

(٤) الطوسى : اللمع ص ٢٢٩ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

طاعة لله طلبا للغفران والنجاة من العذاب . ولأجل لذلك ، ينبغى أن يتذكر العبد – كما يقول الغزالى –عند تردده بين الصفا والمروة تردده بين كفتى الميزان فى عرضات يوم القيامة ، وأن عليه أن يمثل الصفا حينئذ بكفة الحسنات والمروة بكفة السيئات وعليه أن يتذكر أيضاً تردده بين الكفتين ناظرا إلى الرجحان والنقصان ، مترددا بين العذاب والغفران [١] .

والوقوف بعرفة من أهم أركان الحج ، بعد الطواف بالكعبة ولابد من تحقيقه كاملا ولهذا فالوقوف بعرفات عند الصوفية لا يقفون به عند حد معناها الظاهر بل يجمعون عليه معناه الباطن ، فيكون حينئذ وقفة بالقلب لا وقوفا بالبدن وأعضائه . ويلزمهم الأدب فيه أن يعظموا ويستشعروا بين يدى من يقفوا ، ولا يتأتى لهم الكمال فى وقوفهم إلا بوقفة القلب ، وليست الأخيرة إلا بعدم الإعراض عنه بعد وقوفهم بين يديه تعالى [٢] .

فالوقوف بعرفات إذاً وقفة –على حد قول النفرى– والوقفة ينبغى أن تليق بحضرة الحق تعالى ولا يمكن للعبد أن يحقق هذه الوقفة إلا بالتبرى من حوله وقوته ، فإذا كان كذلك بقلبه وكليته ، فإن الحق تعالى يتعرف عليه فى وقوفه بين يديه بمنته وحوله وقوته [٣] .

وكما وقف الصوفية عند معانى الوقوف بعرفة ، واجتهدوا أن يتذوقوا بقلوبهم ما تفعله جوارحهم ، فكذلك فعلوا فى رمى الجمرات ، فرموها ورموا معها جمرات الهوى والنفس والحظوظ والأمانى ، إن

---

(١) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ١ ص ٢٧١ .

(٢) الطوسى : اللمع ص ٢٢٨ .

(٣) القشيرى : لطائف الإشارات – المجلد الأول ص ٢٦٤ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الرمى الأول هو الذى يفعلونه امتثالا لما يحدده الشرع لأداء الفريضة ، والثانى يوجبه الكمال فى العبادة أو الفريضة . وكما أن الأول لابد منه ، فكذلك لابد من الثانى ، ولا يتأتى الأخير بالبدن ، بل بالقلب وتجرده عن كل علاقة تربطه بالدنيا [١] .

بل إن الأدب الذى يحرصون عليه فى إتيان هذه الأركان ، ينبغى أن يصاحبهم فى كل أحوالهم ، فإذا رموا الجمرات فإن عليهم أن يرموا معها ملاحظة أعمالهم ، ومشاهدة أفعالهم [٢] . ولاشك أن الحرص على الوعى بهذه الدقيقة فى رمى الجمرات ، هو الحرص على ضرورة الإخلاص فى الأعمال والطاعات ، فلا يكون رؤية الخلق لها هو المطلوب، بل المقصود منها تحقيق التجرد فى كل عمل يؤديه بحيث لا يكون إلا لله وحده وذلك داخل فى الأمور الباطنة اللازمة للعبادة المشروعة والكاملة لله وحده [٣] . ومن ثم فلا يجتمع الإخلاص فى القلب ومحبة المدح والثناء من الناس [٤] .

وإذا كان الإخلاص ، والصدق فيه مطلب لابد أن يعيه العبد فى أثناء رمى الجمرات ، فإن ثمة دقيقة أخرى ينبغى أن يفطن إليها فى رمية لتلك الجمرات فيرمى بها وجه الشيطان ، ويقصد بها حقيقة الانقياد للأمر إظهارا للعبودية لله تشبها بمقام إبراهيم عليه السلام [٥] .

---

(١) القشيرى : لطائف الإشارات – المجلد الأول ص ٢٦٤ .
(٢) الطوسى : اللمع ص ٢٢٩ .
(٣) المحاسبى : رسالة المسترشدين – تحقيق عبدالفتاح أبو غدة – دار السلام للطباعة والنشر – القاهرة – الطبعة الخامسة – ١٩٨٣م ، ص ١١٣ .
(٤) ابن القيم : الفوائد ص ١٤٧ .
(٥) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ١ ص ٢٧١ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وذبح الهدى لا يخلو أيضاً عند الصوفية من مضمونه الروحي والخلقي. فهو وإن كان يتضمن الامتثال لأمر الشرع ، والتقرب بهذا الهدى إلى الله ، إلا أن ذلك ليس يكفى طلبا للكمال فى التقرب إليه والإنابة إليه وحده ، ولأجل هذا فإن الذبح الحقيقى لا يكون بذبح الشاة ، فذلك صنيع العوام ، وإنما لابد معه من ذبح أهواء النفس وأمانيها وحظوظها .

وإذا كان الذبح الأول وهو ذبح الهدى المأمور به شرعا ، فإن الذبح الثانى- ذبح هوى النفس - هو الكمال فيما هو مأمور به فى العبادة . ومن ثم فإذا ذبح العبد الشاة ، يلزمه أن يذبح معها عندهم هواه بالكلية تقرباً بصنيعه هذا إلى الحق تعالى [١] .

بل إن الصوفية إمعانا فى التأكيد على أمر هذا المضمون الخلقى والروحى الذى يرونه فى فعل الذبح ، يؤكدون على أن الأدب فى تحقيقه يلزمهم أن يقدموا على ذبح نفوسهم قبل ذبح ذبيحهم طلبا للكمال فى الوصول إلى الحق تعالى .

وهكذا يمضى الصوفية فى كل ركن من أركان الحج المفروضة والمسنونة ، فلا يقفون عند أدائها بجوارحهم بل يعمدون إلى ذوق معانيها ما استطاعوا بقلوبهم .

وإذا كان الحج فى مضمونه الروحى الأصيل هو التوجه إلى الله ، والشعور الجمعى من المسلمين جميعا بالعبودية الكاملة فى هذا المشهد الواحد الذى يجمعهم فى وقوفهم فى عرفات ، أو فى طوافهم من قبل بالكعبة ، فإن هذين الموقفين وغيرهما كالتلبية والسعى بين الصفا

---

(١) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ١ ص ٢٧١ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

والمروة كل ذلك يستلزم أن يظل العبد دوما على ما حصله من زاد هـذا السفر الروحى . ومن هنا فهم إذا رجعوا إلى طواف الزيارة كما يقولـون فمن الأدب ألا يتعلقوا بغيره ، بل إن العبودية الكاملة ، والتوحيد الخالص يلزمهم ألا يلوذوا بعد ذلك بأحد من خلقه [١] .

بهذا المفهوم الذوقى تحصل الفائدة الروحية للعبد فى أدائـه لتلـك الفريضة وتعم فائدتها عليه فى علاقته بالحق والخلق معا . وإنما يتحقـق هذا المفهوم الأخير فى اللحظة التى يتحلل فيها العبد مـن الإحـرام ، إذ ينبغى أن يظل هذا الإحرام ملازما له فى قلبه ، بحيث كما خرج من بيت نفسه قاصدا بيت الله ، فينبغى أن يخرج من بيت ربه إلى ربه تعـالى [٢] ومن هذا الوجه يصبح الحج فعلا عبادة تهدف إلى تهذيب الأخـلاق [٣] ، وإلا صارت مجرد تعب ونصب لا طائل من رواله .

ومعنى هذا أن محك العبادة الكاملة لله لا يكون فقـط باسـتيفاء شرائطها الظاهرة بل بالحرص على استيفاء شرائطها الباطنة . وهذا هـو الأمر الذى يحرص عليه الصوفية حرصهم على أداء هذه العبادات علـى نحو ما بينه الشرع طلبا للكمال فى العبادة من ناحية ، وللقرب مـن اللـه والمعرفة التامة به من ناحية أخرى . وإذا لم تكن العبادات على هذا النحو لم تكن كاملة لأن أداء الشعائر الدينية أداء آليا من غير التفات ، ولا وعى بمقصودها وحكمتها خروج بها فعلا عن وجهها الصحيح [٤] . ولأجل هذا

---

(١) الطوسى : اللمع ٢٢٩ .
(٢) القشيرى : لطائف الإشارات ص ٢٦٤ .
(٣) التفتازانى (الدكتور أبو الوفا) : مدخل إلى التصوف الإسلامى ص ١٧ .
(٤) أمين (الدكتور عثمان) : الجوانية . أصول عقيدة وفلسفة ثورة - دار القلم - القاهرة - ١٩٦٤ - ص ٢١٦ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

اجتهاد الصوفية فى عبادتهم لله ظاهرا وباطنا معا ، حتى لا تكون أقـــوالا باللسان وأفعالا بالجوارح وإنما أفعال حقيقية ترفع إلى الحق تعـــالى فـــى أعلى عليين !! .

وإذا أصبحت العبادات بهذا المضمون بالذات ، فقد حققت القصـــد من أصلها وهو توكيد الألوهية والإذعان لله وحده بالعبودية التامـــة مـــن ناحية ، وارتقت أخلاق صاحبها فى معاملاته مع الخلق من ناحية أخرى . وهذا هو القصد من الدين وجوهر العبادة وسرها الأصيل .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

مصادر ومراجع البحث

أولاً : المصـــادر:

ابن تيمية (أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبدالحليم ت ٧٢٨هـ)

(١) رسالة العبودية – المؤسسة السعودية – القاهرة – ١٩٧٨

ابن تيميـــة :

(٢) التحفة العراقية فى الأعمال القلبية – المكتبة السلفية – القـــاهرة – الطبعة الثانية – ١٣٩٩هـ .

البغدادى (الخطيب) :

(٣) الفقة والفقيه – تحقيق إسماعيل الأنصارى – مكتبة أنس بن مالك – القاهرة ١٤٠٠هـ .

الجوزية (شمس الدين محمد بن ابي بكر المعروف بـــابن قيـــم ت ٧٥١هـ)

(٤) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلموالإرادة – صححـــه وعلـق عليه محمود حسن ربيع – مكتبة حميدو – الإسكندرية – الطبعـــة الثالثة – ١٩٧٩.

الجوزية (ابن قيم) :

(٥) الفوائد – المكتبة القيمة – القاهرة – الطبعة الأولى ١٤٥٠هـ .

(٦) إغاثة اللهفان مصائد الشيطان – دار التراث العربى للطباعة والنشر – القاهرة – الطبعة الأولى – ١٩٨٣م

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الجيلانى (عبدالقادر بن موسى بن عبدالله بن يحيى (ت ٥٦١هـ)

(٧) الغنية لطالبى طريق الحق – طبعة مصطفى البابى الحلبى – القاهرة – الطبعة الثالثة – ١٩٥٦م جزآن فى مجلد واحد .

الجيلى (عبدالكريم بن ابراهيم (ت ٨٣٢هـ)

(٨) الإنسان الكامل فى معرفة الأوائل والأواخر – وبهامشة أربعة كتب للإمام الغزالى – طبعه صبيح – القاهرة ١٩٦٣ – جزآن فى مجلد واحد .

ابن رجب :

(٩) الخشوع فى الصلاة – المكتبة القيمة – القاهرة – الطبعة الثانية ١٩٨٣

السلمى (أبو عبدالرحمن محمد بن الحسين بن موسى (ت ٤١٢)

(١٠) طبقات الصوفية – تحقيق نور الدين شريبة – مكتبة الخانجى – القاهرة – الطبعة الثانية ١٩٦٩.

السهروردى البغدادى (شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد (ت ٦٣٢هـ)

(١١) عوارف المعارف – دار الكتاب الغربى – بيروت – الطبعة الثانية – ١٩٨٣.

ابن سينا :

(١٢) رسالة فى ماهية الصلاة – ضمن مجموعة رسائل أخرى – ضمنها الدكتور حسن عاصى فى كتابه التفسير القرآنى واللغة

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الصوفية فى فلسفة ابن سينا المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر – بيروت – الطبعة الأولى ١٩٨٢.

الشعرانى (عبدالوهاب بن احمد بن على (ت ٩٧٣هـ)

(١٣) البحر المورود فى بيان المواثيق والعهود – المطبعة الميمنية – القاهرة – بدون تاريخ.

الشعرانى :

(١٤) أسرار أركان الإسلام – تحقيق عبدالقادر أحمد عطا – دار التراث العربى للطباعة والنشر – القاهرة – الطبعة الأولى – ١٩٨٠.

الشعرانى :

(١٥) لواقح الأنوار القدسية فى بيان العهود المحمدية – القاهرة – بدون تاريخ.

الطوسى (السراج (ت ٣٧٨هـ)

(١٦) اللمع تحقيق طه عبدالباقى سرور – والدكتور عبدالحليم محمود – دار الكتب الحديثة – القاهرة – ١٩٦٠م.

عبده (الأستاذ الإمام محمد (ت ١٩٠٥م)

(١٧) رسالة التوحيد – مطبعة دار النصر للطباعة – القاهرة – ١٩٦٩م

عبده (محمد) :

تفسير فاتحة الكتاب وجزء عم – طبعة جريدة الجمهورية – القاهرة. – ١٩٨٩.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ابن عجيبة (أحمد بن محمد)

(١٩) الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية - تحقيق عبدالرحمن حسن محمود- عالم الفكر - القاهرة - ١٩٨٣.

ابن علوية :

(٢٠) المنح القدوسية فى شرح المرشد المعين بطريق الصوفية - دار ابن زيدون تحقيق سعود القواص . بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٨٦.

ابن عربى (محيى الدين محمد بن على الحاتمى (ت ٦٣١هـ)

(٢١) الفتوحات المكية - طبعة دار صادر بيروت - والهيئة العامه للكتاب - القاهرة .

ابن عربى :

(٢٢) مواقع النجوم - مكتبة صبيح - القاهرة - ١٩٦٥ .

ابن عربى :

(٢٣) أسرار الوضوء - مخطوط رقم ٣٢٠ مجاميع - دار الكتب المصرية .

ابن عطاء الله السكندرى (أحمد بن محمد عبدالكريم (ت ٧٠٩هـ):

(٢٤) التنوير فى اسقاط التدبير - تحقيق موسى محمد على ، وعبدالعال العرابى - دار التراث العربى - القاهرة .

الغزالى (محمد بن محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ)

(٢٥) احياء علوم الدين طبعة مصطفى البابى الحلبى - القاهرة .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ابن قدامة (عبدالله بن أحمد بن محمد (ت ٦٢٠هـ)

(٢٦) المحرر فى الحديث فى بيان الأحكام الشرعية - مكتبة السلام العالمية - القاهرة - بدون تاريخ .

القشيرى :

(٢٧) الرسالة - تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود - الدكتور محمود بن الشريف - دار الكتب الحديثة القاهرة - ١٩٧٥.

القشيرى :

(٢٨) لطائف الاشارات - تحقيق الدكتور ابراهيم بسيونى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٩٨١ - المجلد الأول .

المحاسبى (الحارث بن أسد (ت ٢٤٣هـ)

(٢٩) الوصايا - تحقيق عبدالقادر عطا - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الاولى - ١٩٨٦.

المحاسبى :

(٣٠) فهم الصلاة - تحقيق محمد عثمان خشت - مكتبة القرآن - القاهرة ١٩٨٣.

المحاسبى :

(٣١) القصد والرجوع إلى الله - دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٦.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

المحاسبي :

(٣٢) رسالة المسترشدين – تحقيق عبدالفتاح أبو غدة – دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة – الطبعة الخامسة – ١٩٨٣م.

المهدي (محمد بن المنور أبي سعيد)

(٣٣) أسرار التوحيد في مقامات الشيخ ابي سعيد – تحقيق الدكتور إسعاد قنديل – مراجعة الدكتور يحيى الخشاب – الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر – القاهرة – بدون تاريخ .

النابلسي (عبدالغني (ت ١١٤٣هـ)

(٣٤) حقائق الإسلام واسراره – دراسة وتحقيق عبدالقادر أحمد عطا – دار التراث العربي للطباعة والنشر – القاهرة – الطبعة الأولى – ١٩٨٦.

الهجويري (أبو الحسن علي بن عثمان الجلابي (ت ٤٦٦هـ)

(٣٥) كشف المحجوب – تحقيق الدكتورة إسعاد قنديل – مراجعة الدكتور يحيى الخشاب – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة – الطبعة الأولى – ١٩٧٥م.

أهم المراجع :

التفتازاني (الدكتور أبو الوفا الغنيمي) :

(٣٧) مدخل إلى التصوف الإسلامي – دار الثقافة للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٧٦.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

جاب الله (الدكتور محمد عبدالمقصود) :

(٣٨) أحكام العبادات – دراسة شاملة لمذاهب الفقهاء – دار الكتب الجامعية الحديثة – طنطا – الطبعة الأولى – ١٩٨٦م.

أمين (الدكتور عثمان) :

الجوانية – أصول عقيدة وفلسفة ثورة – دار القلم – القاهرة – ١٩٦٤م.

العراقي (الدكتور محمد عاطف) :

(٣٩) ثورة بالعقل في الفلسفة العربية – دار المعارف – القاهرة – الطبعة الثالثة – ١٩٧٦م.

العقاد (عباس محمود) :

(٤٠) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه – دار نهضة مصر للطبع والنشر – القاهرة – بدون تاريخ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com